«أعظم كُتّاب هولندا»
– «إن إر سي هاندلزبلات»

هيلا هاسه

البحيرة السوداء

رواية

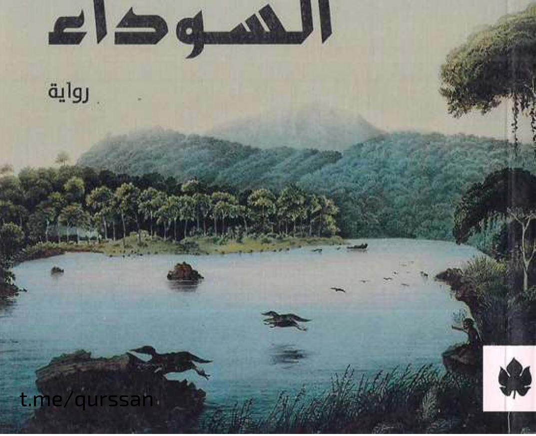

t.me/qurssan

t.me/qurssan

هيلا هاسه

البحيرة السوداء

ترجمتها عن الهولندية
أمينة عابد

الكرمة

t.me/qurssan

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: Oeroeg

حقوق النشر © هيلا هاسه، ١٩٤٨

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © أمينة عابد

Vertaald door Amina Abed

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

Copyright © 1948 The Estate of Hella S. Haasse

Published by Em. Querido's Uitgeverij, Amsterdam

نشر هذا الكتاب بدعم كريم من «المؤسسة الهولندية للأدب»

Nederlands letterenfonds
dutch foundation for literature

هاسه، هيلا (١٩١٨-٢٠١١)

البحيرة السوداء: رواية / هيلا هاسه؛ ترجمة أمينة عابد - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٠.

١٤٤ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776743144

١- القصص الهولندية.

أ- عابد، أمينة (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٢٠٤٧ / ٢٠١٩

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

لوحة الغلاف: «شيلاجا باتينجان» لـ«فرانتس فيلهلم يونجهون»،
من مجموعة جاوة، ١٨٥٦، تفصيلة

t.me/qurssan

كان «أوروخ» صديقي. عندما أرجع بذاكرتي إلى أيام طفولتي وسنوات شبابي، تظهر صورة «أوروخ» في مخيلتي، دائمًا ومن دون استثناء، كما لو أن هذه الذكرى واحدة من تلك الصور السحرية التي كنا نشتريها في الماضي، كل ثلاث بعشرة سنتات: بطاقات صغيرة لامعة، يميل لونها إلى الصفرة، مغطاة بورق لاصق، عليك أن تحكَّه بقلم الرصاص إلى أن تظهر الرسمة المخبأة تحته. على هذا النحو يظهر «أوروخ» أمام عينيَّ، عندما أستغرق بالتفكير في الماضي. حتى وإن كان المحيط مختلفًا، حتى وإن كان الزمن الذي أسترجعه موغلًا في الماضي القريب أو البعيد، فإنني أرى «أوروخ» على الدوام، سواء في الحديقة البور في مزرعة «كيبون دجاتي»، أو على الدروب الموحلة بالطين البني الأحمر الممتدة في حقول الأرز، المترامية في عمق أراضي «بريانجر» الجبلية؛ في العربات الساخنة للقطار الذي كان يقلنا كل يوم، جيئةً وذهابًا، إلى المدرسة الابتدائية في مدينة «سوكابومي»،

t.me/qurssan

وفي مرحلة لاحقة، في بيت الطلاب التابع للمدرسة في باتافيا[١]، عندما كنا نحن الاثنين في المرحلة المتوسطة. أنا و«أوروخ»، ونحن نلعب ونقوم برحلات استكشافية في البرية. أنا و«أوروخ»، ونحن منحنيان على واجباتنا المدرسية، وعلى ما جمعناه من طوابع البريد، وعلى الكتب الممنوعة. أنا و«أوروخ»، أحدنا مع الآخر في الأوقات كلها، في مراحل نمونا كلها من الطفولة إلى اليفاعة. أستطيع أن أقول إن «أوروخ» منطبع في حياتي مثل طابع بريد، دمغة، خاصة في هذه اللحظة، الآن وقد أصبح كل شكل من أشكال التواصل بيننا، كل شكل من أشكال لقاء أحدنا مع الآخر، في عداد الماضي. لا أدري لماذا أرغب في تقديم كشف عن علاقتي بـ«أوروخ»، وعن كل ما عناه وما زال يعنيه لي. لعل ما يدفعني إلى هذا الأمر هو اختلافه العصي على التغيير وعلى الفهم، ذلك السر الكامن في الروح والدم، الذي لم تتمخض عنه أي مشكلة في مرحلة الطفولة والشباب، ما يجعله الآن أكثر إيلامًا.

كان «أوروخ» الابن البكر لـ«مندور»[٢] أبي، وقد وُلد

(١) جاكرتا الحالية. (المترجمة).

(٢) رئيس عمال جاوي يعمل تحت إمرة مدير مزرعة هولندي. (المترجمة).

t.me/qurssan

مثلي في مزرعة «كيبون دجاتي» التي كان أبي مديرها. لم يكن يفصلنا في العمر سوى بضعة أسابيع. كانت أمي تحب أم «أوروخ» كثيرًا، لأنها على الأرجح ـ كونها امرأة هولندية شابة، للمرة الأولى في الهند الشرقية، وفي مزرعة «كيبون دجاتي» النائية، شبه محرومة من أي شكل من أشكال التواصل مع أبناء جنسها وعرقها ـ كانت ترى في «سيدريس» الرقيقة المرحة، الشخص الذي يفهمها ويخلص لها. توطدت أواصر علاقتهما بسبب أن كلتيهما كانت تعيش تجربة الحَبَل للمرة الأولى في حياتها. في ساعات النهار الطويلة، في الوقت الذي كان أبي يقوم فيه بجولات تفقّد في حقول الشاي، أو يعمل في مكتبه بجانب المصنع، كانت أمي و«سيدريس» تجلسان في الشرفة الخلفية ومعهما أشغال الخياطة، وتخوضان ـ في جو مفعم بالثقة ـ في الأسئلة والأجوبة عن تجاربهما، عن مخاوفهما وأمانيهما، عن التدرجات اللانهائية في مزاجيهما وعواطفهما، تلك الأحاديث التي لا تجد صداها إلا إذا صدرت من امرأة إلى أخرى. كانت كل منهما ترى الأمور بطريقة مختلفة، وتتحدث لغة الأخرى بركاكة وتلعثم، لكن المعجزة نفسها كانت تنمو في بطن كل منهما، تحت الروب الأوروبي وتحت الزي الجاويِّ، «السارونج». لذلك، لم يكن غريبًا أن تستمر ساعات

t.me/qurssan

الصحبة تلك في الوجود، حتى بعد أن وضعت كلتاهما حملها، وأنا نائمٌ في المهد الخيزراني المزدان بالحرير بجانب كرسي أمي، و«أوروخ» متأرجحٌ في الحمالة، المصنوعة من قماش «الباتيك»، على ظهر «سيدريس».

أولى الذكريات التي أستطيع استرجاعها هي مشهد تظهر فيه المرأتان وهما جالستان بين الأعمدة الرخامية على الشرفة الخلفية، وسط أكداس من الثياب البيضاء قيد الإصلاح. كنا، أنا و«أوروخ»، نحبو في بدلتين متماثلتين من القماش المخطط، بين أصص السرخس التي تطوق مدخل الشرفة الخلفية. تحيط بنا بقع فاقعة من الأحمر والأصفر والبرتقالي، تتمايل في الهواء ذات اليمين وذات الشمال. علمت في السنوات اللاحقة أنها «زنبق القنا» المزروعة بعضها بجانب بعض في الفناء الخلفي. كنت أنا و«أوروخ» نبحث بين الحصى عن الأحجار الصغيرة الشفافة بعض الشيء، التي يلمّعها سكان البلد الأصليون إلى أن تصير قريبة الشبه بالأحجار شبه الكريمة. كان الجو يملأه طنين الحشرات، وحمام الغابة يهدل في الأقفاص المرفوعة على قضبان الخيزران وراء غرف الخدم. نبح أحد الكلاب، تصايح الدجاج وهرول بسرعة كبيرة في الفناء، وانبعث صوت تراشق الماء من جانب البئر. كان الهواء المقبل من الجبال منعشًا، وحاملًا معه دخَانًا مبهمًا

t.me/qurssan

من القرى المجاورة. صبت لنا أمي شراب الفانيليا في كأسين مُلوَّنتين؛ الحمراء لي والخضراء لـ«أوروخ». ارتطمت مكعبات الثلج بحواف الكأس محدثة رنينًا. لا أستطيع أن أشم رائحة الفانيليا قَطُّ من دون أن يخطر هذا المشهد في بالي؛ أنا و«أوروخ»، ونحن نشرب الشراب باهتمام بالغ، في المدخل المفروش بالحصى، السراخس والأزهار وهي تتمايل في الهواء، والأصوات الصباحية كلها تنبعث من الفناء المشمس.

بعد أن وُلدت بسنتين، أجهضت أمي، وتبين فيما بعد أنها لن تحبل مرة أخرى. لعل هذا هو السبب في بقاء «أوروخ» حصرًا رفيقي في اللعب، مع أن «سيدريس» كانت تنجب الطفل بعد الطفل. ولَّت ساعات الجلوس في الشرفة الخلفية إلى غير رجعة. في بعض الأحيان، كانت أمي تجلس هناك وحدها، برسائل أو أشغال خياطة في يدها، لكنني غالبًا كنت أراها راقدة في كرسي الاستلقاء الخيزراني في الضوء الخافت في غرفة نومها، وقد وضعت منديلًا مبللًا على رأسها. أبحث عن التسلية وأجدها مع «أوروخ»، إما بالتسكع في فناء الدار أو خارج السياج المحيط به، في «الكامبونج»[1]، والأجزاء المحاذية له

(١) قرية إندونيسية أو حي شعبي على أطراف مدينة. (المترجمة).

t.me/qurssan

من حقول الشاي. كما أنني غالبًا ما أقضي النهار كله في بيت «المندور»، عند «سيدريس» وإخوة «أوروخ» وأخواته. كانوا يعيشون في البيت الوحيد المبني بالأحجار في «الكامبونج». يطل فناء الدار على النهر الذي يضيق في هذا الجزء ويمتلئ بالصخور. نقفز نحن الأطفال من صخرة إلى صخرة، أو نخوض في الأماكن غير العميقة، التي تركد فيها المياه النقية مثلما تركد في الحوض، نبحث عن السرطانات ذات اللونين الوردي والأصفر المائل إلى الخضرة، وعن يعاسيب الماء وكائنات أخرى. المكان يعج بالحشرات؛ فوق البرك المائية، وتحت الأحراش الكثيفة على طول الضفة. بينما الأطفال الذين يصغروننا سنًّا يجلسون القرفصاء في الطين البني الفاتح، بأجسامهم العارية، من دون أن يحركوا ساكنًا، أتجول أنا و«أوروخ» بعصا في يد كل منا ننخز بها الجحور الداكنة تحت الأجمة. في ذلك الوقت كان كلانا في نحو السادسة من العمر. كنت أطول قامة منه، لكن «أوروخ» يبدو أكثر بلوغًا بجسمه النحيف، مشدود العضلات. الخط المنحدر من لوح كتفيه إلى وركيه الصغيرتين المسطحتين على الأطراف بعض الشيء، يتسم بالمرونة اللامبالية نفسها، التي تُلاحظ عند المراهقين والشباب ممشوقي القامة العاملين في ساحة المصنع وحقول الأرز. يجلس القرفصاء على

t.me/qurssan

الصخور وأغصان الشجر، معتمدًا على أصابع قدميه المرنة، ويحافظ على توازنه على هذا النحو بثقة تفوق ثقتي، ويصحح وضعيته عند اختلال توازنه بسرعة تفوق سرعتي. في ذلك الوقت كنت أنهمك في اللعب إلى حد أن هذه الأشياء لم تسترعِ انتباهي. ما كان يضايقني هو نمش وجهي، وبشرتي التي تحمرُّ وتتقشر في الشمس القوية، فأحسد «أوروخ» على بشرته الداكنة المتجانسة، التي لا تلطخها سوى بقع وردية، هنا وهناك، نتيجة مرض جلدي أصابه في زمن سابق. كان وجه «أوروخ» مسطحًا وعريضًا مثل وجه أمه «سيدريس»، لكنه يفتقر إلى ملامحها البشوش الناعمة التي تجعل وجهها في منتهى الجاذبية. لا أتذكر أن تلك النظرة المتوترة المترقبة قد حادت عن عينيه قَطُّ، وكأنه في انتظار سماع صوت، إشارة، ليس بوسع أحد آخر أن يسمعه. من شدة سواد عيني «أوروخ»، كان حتى بياضهما يبدو وكأنه مظلل. في أوقات الفرح أو الغضب، يضم عينيه بعض الشيء، فيتوارى تألقهما خلف إكليل من رموش قصيرة قاسية. لم يكن «أوروخ» يضحك بفم مفتوح قَطُّ، شأنه في ذلك شأن معظم سكان البلد الأصليين. كان إذا ما واتته حالة ابتهاج لا يستطيع التحكم بها، تمايل إلى الأمام والخلف وقد ظهرت تقطيبة على وجهه. على العموم، كانت الأشياء التي تبهجه تختلف عن الأشياء التي

t.me/qurssan

تبهجني. كنت عندما أقفز على صخور النهر وأنا أهتف من الإثارة بعد صيد موفق للغاية ـ سرطان وردي فاتح، معرَّق مثل صدفة، أو سلمندر شفاف ـ لا يفعل «أوروخ» شيئًا سوى أن يحدق بنظرته الداكنة المتوترة فيما اصطدته ويتسع منخاراه لحظة قصيرة. كان يتعامل مع الحيوانات بمهارة، يصطادها ويتنقل بها من دون أن يُصاب بأي أذى. كنت أحبُّ أن أحتفظ بما أصطاده من حيوانات في صناديق أو علب معدنية ذات أغطية زجاجية، ولقد وافقت أمي على أن أحتفظ بها في أحد المباني الملحقة بالبيت، على الرغم من عدم استطاعتها التغلب على اشمئزازها من «الحيوانات»، لكن «أوروخ» لم يكن يجد متعة في الاعتناء بهذه الحيوانات والسهر على رعايتها. يفتر اهتمامه بها في اللحظة التي يبدأ اهتمامي بها. يحب إزعاج السرطانات بوخزها بعود من القش، إلى أن تتخذ وضعية الهجوم. ما يروق له أكثر من أي شيء آخر هو صراع حيوانين من نوعين مختلفين أحدهما ضد الآخر، يأتي بالعلاجيم ليقيس قوتها في العراك مع سرطانات المياه أو اليابسة، ويهيِّج عنكبوت الرتيلاء ضد السلمندر، والدبور ضد اليعسوب. لعلَّه من المبالغة القول إن هذا الأمر ينطوي على قسوة. لم يكن «أوروخ» قاسي الطبع، كل ما في الأمر هو أنه كان يفتقر إلى شعور الإنسان الغربي الذي يدفعه عادة إلى الرفق

t.me/qurssan

بالحيوان واحترامه، انطلاقًا من وعيه الغامض بما يربطهما من صلة قرابة. كنت إذا ما صرخت بأعلى صوتي، وأنا أشاهد هذه المبارزات، مثارًا من ناحية، وشاعرًا بالذنب والاشمئزاز من ناحية أخرى، نظر إليَّ «أوروخ» من طرف عينه باندهاش، وقال لي بالسوندية، كأنما ليهدئ من روعي: «وما الضرر في هذا؟ إنها مجرد حيوانات». كنت أفضل أن نلعب لعبة الصيادين والاستكشاف، حيث نتسلل بين أشجار الفاكهة في الفناء الخلفي أو، ما هو أكثر إثارة من ذلك، على الصخور في النهر. في الأوقات التي كان أبي يذهب فيها في رحلات عمل، وأمي تعاني من إحدى نوبات الصداع التي تعاودها باستمرار، كنت أتناول الغداء في بيت «أوروخ». كانت «سيدريس»، التي هرمت قبل الأوان وفقدت بعضًا من لياقتها البدنية بعد إنجاب كل أولئك الأطفال، تجلس القرفصاء مع بضعٍ من قريباتها بين أدوات المطبخ في فناء بيتها الخلفي، وتقلي الفطائر المحشوة بالأرز واللحم. يجلس الأطفال حولها، ويأكلون بصمت ما تدفعه «سيدريس» باتجاههم على ورق الموز. الدجاجات الهزيلة تنقر ما تناثر على الأرض من حبات الأرز، والكلب الأسود الأجرب يتلصص من مسافة قريبة في انتظار انصرافنا من المكان. كنت أشعر بأنني في بيتي عند «أوروخ»، في داخل البيت أيضًا، حيث تفوح رائحة

t.me/qurssan

زيت جوز الهند الذي تدهن به «سيدريس» عقدة شعرها. في الشرفة الأمامية، تقوم بضعة كراسي هزازة قديمة، مقاعدها عميقة، أهدتها أمي إياها. كانت المراوح الورقية، والصور الملونة المقصوصة من المجلات، مثبتة بدبابيس على الجدران المصنوعة من الخيزران المضفر، المدهونة باللون الأبيض. أجمل ما رأيته عندهم هو ستارة يابانية مصنوعة من حبال من الخرز، تموِّه فتحة الباب المؤدي إلى غرفتَي النوم الصغيرتين. تصوِّر جبل «فوجي ياما» باللون الفيروزي الخيالي، وأمامه أشجار مزدهرة باللونين الأخضر البحري والوردي الفاقع. كنا إذا ما دخلنا عبر الستارة، انغلقت الحبال الخرزية خلفنا في هسيس سحري غامض. كان جد «أوروخ» يجلس يومًا بعد يوم على أحد الكراسي الهزازة، في بيجامة قطنية مخططة، و«سارونج» مسدل حول كتفيه. كان شيخًا خرِفًا، لا يفعل شيئًا سوى أنه يحني رأسه إحناءات متتابعة، ويضحك عن لثة مصطبغة باللون الخمري الداكن من مضغ التنبول. أمام البيت، ثمة فناء يفصله جدار منخفض مدهون بالكلس عن «الكامبونج». في ذلك الفناء كنت أنا و«أوروخ» نرسم الحدود بين أحواض الزهور، أسوة بالعاملين في حديقة بيتي، ليس بحجارة بيضاء متناسقة وأصص مزخرفة، بل بزجاجات نغرس أعناقها في التراب الأحمر، حتى

t.me/qurssan

لا تبرز من الأرض سوى قيعانها الغائرة اللامعة، ذات اللونين الأخضر الفاتح والغامق. لم تكن الأعشاب ولا الأشجار تنمو في حديقة «سيدريس»، لكن ذلك لم يجعل الحدود التي نرسمها أقل جمالًا. أحيانًا، كان «أوروخ» يأتي لزيارتي في البيت، لكن تلك الزيارات لم تسعد أيًا منا. كان يستحيل علينا أن نلعب ألعابًا طائشة نظرًا لوجود أمي، ولم نكن نطيق صبرًا على اللعب بالمكعبات ومشاهدة الصور. في أوقات المطر، عندما تتحول الحديقة إلى مستنقع والدروب إلى جداول مياه جبلية، نجلس في مدخل الشرفة الخلفية، ونمدُّ أصابع أقدامنا صوب الرذاذ المتطاير من المياه المتدفقة من الرواق. كانت المياه الجارية في المزاريب على مدار السطح تنصبُّ بصوت موسيقي رتيب في الجدول الصغير ثم في البئر. يتعالى نقيق الضفادع طوال النهار، ما عدا ذلك لا يُسمع أي صوت آخر تحت الغيوم الرمادية المنخفضة، التي تحجب عنا قمم الجبال. في هذه الأوقات، كان أبي يبقى غالبًا في البيت، يجلس في الشرفة الداخلية التي اتخذها مكتبًا له، أحيانًا مع أمي، وغالبًا وحده. كانت «البابو»[1] تجهِّز السفرة لي ولـ«أوروخ» على طاولة أخرى، في ساعة غير

(١) مربية من أصل جاوي. (المترجمة).

t.me/qurssan

الساعة التي يتناول فيها والداي الطعام. فقط في المساء، كنت أتناول العشاء مع أبي وأمي في بعض الأحيان، لكنني لم أشعر بالارتياح في أثناء هذه الأوقات قَطُّ. كانت المائدة التي يتدلى فوقها المصباح تشبه جزيرة من الوحدة في الشرفة الخلفية الواسعة. بين الحين والآخر، يتبادل والداي بعض الكلمات بصوت خافت، عادة عن الأمور المنزلية أو عن المصنع أو قضايا العمال. يتنقل الخادم بصمت بين المائدة وغرفة المؤن كي يقوم على خدمتنا، وقد لفَّ وشاحه حول رأسه للتو مثل التاج. كان إذا ما انحنى بالقرب مني، شممت رائحة التبغ الحلو، الممتزجة برائحة النشاء التي يعبق بها «سارونجه» وجاكيته الأبيض على الدوام. في بعض الأحيان، كان أبي يطرح عليَّ أسئلة: عما إذا كنت مطيعًا، وعما فعلته في أثناء النهار. لم أكن أستطيع الإجابة بشكل عفوي قَطُّ، لمعرفتي أن عاقبة ذلك ستكون على الأغلب مشاجرة كلامية بينه وبين أمي. كان أبي يستمع، وقد قطَّب ما بين حاجبيه تقطيبة عدم الرضا، إلى ما أتلعثم به من تقارير عن لعبي ومغامراتي، ثم يقول لأمي كعادته، عندما أمسك عن الكلام:

ـ لا ينبغي للولد أن يذهب إلى «الكامبونج». هذا شيء يفسده. إنه لا يستطيع أن ينطق كلمة صحيحة بالهولندية.

t.me/qurssan

ألا تسمعين ذلك؟ لقد أصبح «جاويًا» خالصًا. لماذا لا تبقيه في البيت؟

قالت أمي في إحدى المرات، ردًّا على هذا الانتقاد:

ـ يجب أن يذهب إلى المدرسة. إنه يبلغ السادسة. كيف لي أن أبقيه في البيت؟ يجب أن يُشغل وقته، يجب أن يلعب، ولا يوجد أولاد هنا. إنه وحده دائمًا.

انفجرتُ غاضبًا من عدم ذكرها اسم صديقي الحميم:

ـ يوجد «أوروخ»!

رفعت أمي كتفيها.

قال أبي:

ـ لن تقبل به أي مدرسة بهذه اللغة الركيكة. كل كلمة ينطقها، يُعقِبها بكلمة سوندية. ينبغي أولًا أن يتعلم الهولندية جيدًا.

لم أشهد متابعة النقاش، ولكن بعد مُضي بضعة أيام، في العشية، جاء عامل شاب من المصنع، سمعتُ لاحقًا أنه كان قد درس في كلية التربية في بادئ الأمر. قيل لي إنني سأُهيَّأ في فترة قصيرة للذهاب إلى المدرسة الابتدائية في مدينة «سوكابومي». قاومت باستماتة. كان

t.me/qurssan

«أوروخ» ينتظرني في الخارج، في فناء الدار؛ صرفته أمي عندما وصل معلمي الجديد. رأيت كنزة «أوروخ» ذات اللون الأحمر الفاقع تتحرك بين الشجيرات التي تحجب غرف الخدم عن عيوننا. كنا قد تواعدنا على الذهاب معًا لإخراج «أسود النمل» من جحورها. بينما أمي تتكلم مع الرجل الشاب، حاولت التملص من الشرفة الخلفية من دون جدوى. كان يجب أن أجلس على كرسي وأجيب عن الأسئلة، من دون أن أستعمل اللغة السوندية التي أتقنها وآلفها أكثر من الهولندية. اقترب «أوروخ» ووقف في مدخل الشرفة الخلفية، وراح ينظر إلينا بصمت واندهاش. بقي واقفًا هناك، في سكون تام، حتى انتهاء «الدرس».

* * *

في مساء ذلك اليوم، جاءت أمي إلى غرفتي قبل أن أذهب إلى النوم، الأمر الذي كانت نادرًا ما تفعله. بينما أغسل وجهي وأخلع ثيابي في استحياء تحت إشراف «البابو»، أخبرتني أمي أن دروس السيد «بولينجر» ستستمر حتى شهر أغسطس، الشهر الذي تفتح فيه المدارس أبوابها. قلت إنني لا أريد الذهاب إلى المدرسة، قلت ذلك وأنا أفكر بالجلوس الهادئ والاستجواب. عدَّدت لي أمي مزايا

t.me/qurssan

التعليم وتأثيره الإيجابي على وضعي في المستقبل، لكن فكرة أن أتعلم القراءة، والحساب، والكتابة، لم تجذبني كثيرًا.

سألتها عندما أنهت كلامها:

ـ هل سيذهب «أوروخ» معي؟

أطلقت أمي تنهيدة. كانت جالسة على كرسي خيزراني منخفض بجانب السرير، في روب منزلي من قماش مزهَّر، وقد أحاطت بها رائحة الكولونيا التي لا تفارقها أبدًا. قالت بنفاد صبر وهي تربت على صدغها بمنديل جيب مبلل:

ـ ماذا تظن؟! لا تكن غبيًّا إلى هذه الدرجة. «أوروخ» صبي من أهل البلد.

ثابرتُ:

ـ ألا ينبغي أن يذهب إلى المدرسة إذن؟

نهضت أمي عن مقعدها، وطبعت قُبلة سريعة على خدي، وقالت بغموض:

ـ ربما، ولكن ينبغي أن يذهب إلى نوع آخر من المدارس طبعًا. والآن اذهب إلى النوم.

صعدتُ إلى سريري، فأدخلت «البابو» حواشي الناموسية

t.me/qurssan

تحت الفراش. جثوت على طرف السرير، ونظرت إلى أمي من خلال النسيج الرقيق وبدأت الكلام:

ـ سأسأل «سيدريس»...

توقفت عند الباب، وقالت بنبرة منزعجة متوترة تنبئ بصداع وشيك:

ـ لا تذهب للعب في «الكامبونج». أبوك لا يحب ذلك. اطلب من «أوروخ» أن يأتي إلى هنا، إذا أردت. تصبح على خير.

وهذا ما حدث. على الرغم من أنني انتهزت الفرصة عدة مرات، ولا سيما في أثناء غياب أبي، وتملصت إلى النهر وإلى مسكن «سيدريس» المضياف، إلا إن «أوروخ» هو الذي كان يأتي للعب عندي على العموم. ننهب أشجار الفاكهة في الحديقة، نطارد جميع أنواع الحشرات بين شجيرات الفناء الخلفي المهمل، أو نجلس القرفصاء في الجو الماطر بين أعمدة الشرفة، وننهمك في فعل أشياء لم يعد بوسعي أن أتذكرها. كان إذا ما جاء السيد «بولينجر» من أجل «الدرس»، بقي «أوروخ» في الجوار. يجلس على الأرض في مكان قريب منا، ولا يحيد عينيه عنا. تلقى خبر ذهابي إلى المدرسة بكثير من الهدوء. سألني فقط عما إذا كنت سأذهب بالقطار، وعندما أجبته بنعم، أخذ يقلد

t.me/qurssan

خوار القطار وصخبه بتركيز بالغ. بعد ذلك، لم نعد نتبادل كلمة واحدة عن المدرسة ولا عن السيد «بولينجر». كان كلانا، أنا و«أوروخ» على حد سواء، يعتبر أنه شيء بديهي أن يكون «أوروخ» حاضرًا في أثناء الدروس. أمي التي كانت تدخل علينا بين الحين والحين في أثناء وجود السيد «بولينجر»، حاولت مرة أو مرتين أن تصرِف «أوروخ». كان يغادر في تمهل، ولكن ما إن يمضي ربع ساعة حتى يعود فيقف بين أصص الأزهار عند مدخل الشرفة الخلفية.

كان والدي راضيًا عما أحرزه من تقدم فيما يتعلق بزيادة مفرداتي اللغوية، لكنني بقيت حتى وقت متقدم من دراستي محتفظًا باللكنة القوية للشخص الذي يستطيع أن يعبر عن أفكاره باللغة السوندية على نحو أسهل من الهولندية. مضت الشهور، ثم بدأت التحضيرات للذهاب إلى المدرسة. جلست خياطة عجوز من أهل البلد على ماكينة الخياطة في الشرفة الداخلية وخاطت لي، تحت إشراف أمي، البناطيل والقمصان التي من شأنها أن تُستبدل بثيابي القطنية المنزلية. جاء رجل صيني بالصنادل لأقيسها، وفي آخر الأمر عاد أبي من رحلة عمل، حاملًا معه حقيبة ولوازم مدرسية. عرضت نفسي أمام «أوروخ» وأنا في كامل حلتي المدرسية. تأملني بانتباه، عاين محتوى

t.me/qurssan

مقلمتي، ثم سألني مرة أخرى عما إذا كنت سأسافر بالقطار كل يوم.

ذات مساء، أخذت أمي تتنقل عبر البيت، في أجمل ملابسها وتسريحات شعرها على غير العادة. كانت المصابيح الصغيرة مضاءة في الشرفة الداخلية، ووضع خادمنا أطباقًا صغيرة من المأكولات على الطاولة. تناهى إلى مسمعي أنه سيأتينا ضيوف: بضعة سادة وبضع سيدات من مدينة باتافيا، كانوا في ضيافة مزرعة في الجوار، والسيد «بولينجر». قالت أمي وهي تبتسم وتنظر إلى نفسها في المرآة:

ـ لا، ليس من أجل أن يعطيك درسًا. إذا تصرفت بأدب، سمحت لك بتناول الطعام معنا.

ألبستني «البابو» بدلة من بدلاتي المدرسية. أثار الوضع الغريب إعجابي الشديد، فوقفت أنتظر الضيوف أمام البيت. كانت الشمس قد غربت للتو، والأشجار المجاورة للحديقة تلوح بوضوح أمام الغيوم الحمراء المتراكمة في الغرب. لم تكن قمم الجبال قد غاب عنها الضوء بعد. يتناهى طنين الحشرات الباعث على النوم من ظلام ما تحت الشجيرات والأشجار. في «الكامبونج» يقرع أحد الأشخاص على جذع شجرة مفرَّغ في إشارة إلى حلول

t.me/qurssan

الليل. وأنا أحدق في الوهج الآخذ بالشحوب فوق خط الأفق، تولاني شعور بالكرب والضيق لم أعرفه من قبل، لأنني يجب أن أذهب إلى المدرسة، لأن كل شيء سيتغير. لا أدري إن كنت أدرك هذا كله في ذلك الوقت، لعلِّي الآن أحاول أن أجد تفسيرًا لذلك الشعور بالحزن والانزعاج الغامض.

هناك في الأسفل، عند الطريق الرئيسي، انعطفت سيارة إلى داخل البوابة، توقفت بعد لحظة قصيرة أمام مدخل الشرفة. خرجت أمي ورحبت بالضيوف. كان أبي معهم. لا أتذكر من العشاء سوى أن والديَّ كانا يتكلمان ويضحكان كما لم يفعلا من قبل، وأنني من شدة اندهاشي لهذا الأمر كدت أنسى أن أتناول طعامي. بعد «وجبة الأرز»، عندما اجتمع الضيوف كلهم في الشرفة الداخلية ـ كنت جالسًا على الأرض بجانب خزانة الفونوغراف من دون أن يلاحظني أحد ـ اقترح واحد من الضيوف أن يخرجوا في رحلة إلى «التيلاجا هيدونج»، البحيرة السوداء، الواقعة في الجبال. ما إن سمعت هذا الاسم حتى بدأ قلبي يخفق بشدة. كانت بحيرة الجبل تلك تلعب دورًا كبيرًا في مخيلتي ومخيلة «أوروخ»؛ السبب الرئيسي في ذلك هو الحكايات الخرافية التي تُشاع عنها. «تيلاجا هيدونج»، الواقعة في عمق الغابة،

t.me/qurssan

هي المكان الذي تجتمع فيه الأرواح الشريرة وأرواح الموتى؛ تعيش فيه «نينا كومبيل»، مصاصة الدماء في هيئة امرأة عجوز، تتلصص على الأطفال الموتى.

كانت ابنة أحد أعمام «أوروخ»، التي تدعى «ساتيه» وتقيم في بيت «سيدريس»، تستطيع أن تحكي حكايات مرعبة، مرتبطة كلها بالبحيرة السوداء بطريقة أو بأخرى. رسم خيالنا تلك البحيرة على شكل مساحة مائية سوداء ملأى بالغيلان والأشباح. في المستقبل، عندما نكبر، سنذهب إلى هناك لنصارع تلك الكائنات. أحيانًا، عندما نجلس القرفصاء أحدنا بجانب الآخر، لأخذ قسط من الراحة في أثناء اللعب، أو للتواري من وابل من المطر، نحبك خيوط المغامرة المرعبة التي سنقوم بها في المستقبل في أدق تفاصيلها، ونرتعش من الخوف الذي لم نكن نعايشه على أنه شيء مزعج على الرغم من كل شيء. كنت قد ذهبت في إحدى المرات إلى «التيلاجا هيدونج»، عندما كنت طفلًا صغيرًا، لكنني لم أكن أستطيع تذكُّر أي مشهد من تلك الرحلة، سوى المشهد الذي كان فيه والدي بلباس السباحة. كان عمال المزرعة يستعملون البحيرة حوضًا للسباحة، لكنهم لم يكونوا يذهبون إليها كثيرًا بسبب موقعها البعيد. في تلك الليلة، اقترح السيد

t.me/qurssan

«بولينجر» أن يذهبوا للسباحة فيها، مشيرًا إلى البدر، الظاهر مثل قرص أحمر برتقالي خلف أوراق الشجر. لقي الاقتراح استحسانًا كبيرًا. بينما ينهض الجميع عن مجلسه، حبوت من مخبئي، وسحبت أمي من طرف ثوبها. كان وجهها متوردًا وعيناها متألقتين. رأيتها في تلك الليلة غريبة وجميلة، بقرطيها الطويلين وشعرها المرفوع. سألتني بابتسامة وذهن شارد:

ـ ما الأمر؟ ألم تذهب إلى النوم بعد؟ أتريد الذهاب معنا؟

خرج أبي من غرفة النوم، وبين ذراعيه كومة من ملابس السباحة، قطَّب حاجبيه وأعرب عن رفضه، لكن الضيوف استطاعوا بضحكهم المجلجل ومزاحهم ـ كان عدد كبير من قناني الشراب الفارغة موجودًا على المائدة ـ أن يقنعوه بأن أذهب معهم. ارتعشت من شدة الانفعال. شعرت بالأسف لعدم ذهاب «أوروخ» معنا في هذه الرحلة، لكنني من ناحية أخرى امتلأت فخرًا وإثارة بأنني أقوم بهذه الرحلة قبله، وإن كانت تحت رعاية البالغين، الذين أثاروا إعجابي بسرورهم ولامبالاتهم، كما لو أنهم يقومون بهذه الرحلة بقصد المتعة والترفيه. أرسلوا الخادم الشاب إلى بيت «المندور» «ديبو»، والد «أوروخ»، لاستدعائه. لم أفهم ما الداعي لاستدعاء والد «أوروخ»، لكنني لم أجرؤ

t.me/qurssan

على الاستفسار ولا على الطلب بأن يذهب معنا «أوروخ»، خوفًا من أن يتركوني في البيت في آخر لحظة. في آخر الأمر، جلسنا كلنا في السيارة. استندتُ إلى ركبتَي السيد «بولينجر». وقف كل من والد «أوروخ» والبستاني «دانو» على طرف من طرفي السيارة، على درجات الصعود إليها. هكذا انطلقت بنا السيارة. نظرت إلى «ديبو» الذي لم أكن أعرفه جيدًا، وأكاد أهابه مثلما أهاب أبي. كان أجمل رجل جاويٍّ رأيته في حياتي، بقامة ممشوقة، ووجه جميل استثنائي ذي ملامح واضحة. كان يقف على درجة الصعود إلى السيارة بجسم مشدود، ماسكًا نفسه بيد واحدة بكل سهولة. كان القمر قد ألقى ضوءه على جاكيته الأبيض المنشَّى. خالجني إحساس بأنه ينظر نظرة ازدراء إلى الضيوف الصاخبين في السيارة. بدأ واحد من الضيوف يسرد قصة طويلة لم أفهم مغزاها، وراح الضيوف الآخرون يقاطعونه بوابل من الضحك بين الحين والآخر. كانت أمي متكئة إلى ظهر المقعد في الزاوية، بين السيد «بولينجر» وجدار السيارة، وقد أسندت رأسها إلى ثنيات السقف المفتوح. رأيت دموع الضحك تلمع على خديها. تعبت من الاستناد إلى ركبتَي أستاذي، فحاولت أن أبحث عن مجلس مريح على حافة المقعد، بينه وبين أمي. أزحت طرف فستان أمي إلى جانب، فاكتشفتُ في أثناء عملي

t.me/qurssan

هذا أنها تمسك يد السيد «بولينجر». السماء زرقاء زرقة المعدن، وملأى بالنجوم. القمر معتلٍ قبة السماء وفاقد وهجه الأحمر. يتناهى حفيف الريح من بين الأعشاب وغابات الخيزران المترامية على طرفي الطريق، المتصاعد بانعطافات كبيرة في المنحدر الجبلي. مررنا من حين إلى آخر بأماكن مكشوفة يمكن رؤية السهول منها. حقول الأرز تتلألأ بين الآجام السوداء، وضوء خافت يترجرج هنا وهناك في بيت من بيوت القرية. من فوق، تبدو حقول الشاي بشجيراتها المتشابهة المزروعة في صفوف طويلة، مثل قطعان منتظمة من الخراف، واقفة في سكون في ضوء القمر، تظللها في بعض الأماكن فقط «أشجار الحرير» بأوراقها الخفيفة.

كلما تقدمنا في الطريق، سمعنا خرير المياه المتدفقة إلى الأسفل بوضوح أكبر. كانت تيارات مياه صغيرة تتلألأ بين الصخور الطحلبية على سفح الجبل المنحدر بشدة على طرف واحد، وتتحد في جدول على طول الطريق. مال الجو إلى البرودة، وفاحت في هذا المرتفع رائحة التراب الرطب والأوراق العفنة. بدأت الغابة عند أحد منعطفات الطريق، فدخلنا الظلام وسط أصوات الضحك والتهكمات. جلست القرفصاء على

t.me/qurssan

أرض السيارة، خائفًا من الظلام المليء بأصوات الليل المنبعثة من حولنا. لم يشعرني بالأمان سوى قرب «ديبو» الواقف بسكون على درجة الصعود إلى السيارة. بدا لي أن الآخرين، بهرجهم ومرجهم، لا يدركون خطر هذه المملكة الملأى بالعفاريت، لكن «ديبو»، الذي أرفع عينيَّ إلى وجهه واضح الملامح، كلما تخلل ضوء القمر عبر أوراق الشجر، يعرف ذلك. هذا ما كنت أعلمه علم اليقين. توقفت السيارة وترجل الجميع منها. مشيت لصق «ديبو»، الذي أخذ يرشدهم بمصباحه اليدوي إلى الطريق الممتد عبر الشجيرات الصغيرة. صعدنا في درب صخري، ضيق، شديد الانحدار. كان هسيس غامض يتناهى من حولنا، كما لو أن كائنات كثيرة غير مرئية تتسلل معنا إلى الجبل. انطلق شيء عبر أغصان الشجر فوق رؤوسنا. قال «ديبو»، الذي هرعتُ إلى الإمساك بـ«سارونجه»:

ـ إنه سنجاب طائر.

همست وأنا أرتجف من الخوف:

ـ أليست «نينا كومبيل»؟

قال «ديبو» باقتضاب وحزم:

t.me/qurssan

ـ طبعًا لا. كان ينبغي للسيد الشاب أن يكون في فراشه منذ وقت طويل.

توقف عن المسير والتفت إلى الوراء، مضيئًا الدرب بمصباحه اليدوي، حتى يلحق بنا الآخرون. صعدوا في صف واحد، أحدهم وراء الآخر. وصلت أمي والسيد «بولينجر»، الذي كان يساعدها، في آخر الصف. واصلنا الطريق، وكأننا نسير في نفق مظلم، يخرقه شعاع ضئيل فحسب من مصباح «ديبو». مشيت بجانبه من دون أن أقول أي شيء، وحاولت قصارى جهدي ألا أخاف من الأصوات المتناهية من بين الشجيرات. سألته في آخر الأمر:

ـ ألن يذهب «أوروخ» إلى المدرسة؟

بدا أن التفكير بـ«أوروخ» قد أضفى شيئًا من الواقعية على هذا العالم شديد الظلام.

أجاب «ديبو»:

ـ ربما.

لاحت في البعد بقعة مضيئة. عندما اقتربنا منها، رأيت أنها نور القمر، الذي ينساب على شكل رُزَم ضوئية عبر أوراق الشجر. قال «ديبو» في هدوء:

t.me/qurssan

ـ ها هي «تيلاجا هيدونج».

أحسست بقلبي يخفق في حنجرتي، لكن ليس ثمة سبيل للعودة. ركض أبي والرجلان الغريبان صوب البحيرة، في رهان على من يستطيع الوصول إليها أولًا. شعرت بالخجل من سلوكهم، واسترقت النظر خائفًا إلى اليمين وإلى اليسار، أبحث عن الأطياف المتسللة معنا. تناهى من البعد صدى ضحكات الراكضين. تجاوزتنا أمي، والسيد «بولينجر»، والسيدة الأخرى أيضًا. سار البستاني، «دانو»، إلى جانبي الآخر بصمت. مشينا في ضوء القمر صوب ضفة البحيرة. تولاني شعور بالخيبة. رأيت المساحة المائية السوداء الشاسعة، التي رسمتها في خيالي، مجرد بركة صغيرة، تكاد تكون حوضًا من الماء، تحيط بها من جميع الأطراف سفوح جبلية عمودية مغطاة بأحراش كثيفة. كانت رؤوس الأشجار الشبيهة بالريش والصوف تلمع زرقاء زرقة فاتحة في ضوء القمر. بدت البحيرة مثل القاعدة اللامعة لمزهرية في هيئة مخروط ناقص. النباتات المائية تطفو على السطح، ولا سيما على الأطراف. أوراق بعض الأشجار وأغصانها تتدلى حتى داخل المياه. طنين الحشرات بالآلاف، وأصوات هوام الليل في الغابة تبدو جزءًا من السكون المهيب.

t.me/qurssan

فوق قمم الجبال، تتألق النجوم بأضواء جليدية. حدقت في الضفة السوداء على الطرف الآخر من البحيرة، حيث تلمس أوراق الشجر سطح المياه. استطعت من دون أي صعوبة أن أتصور الأرواح الشريرة وهي مختبئة هناك، جاهزة للهجوم. عندما اختفى «ديبو» و«دانو» في الظلام، اخترت على مضض أن أكون في صحبة أمي والآخرين. في تلك اللحظة عرفت أيضًا لماذا ذهب والد «أوروخ» والبستاني معنا. انبعثت طرطشة خفيفة من داخل المياه، واقترب من الضفة قارب، قامت فوقه حجرة خيزرانية من طابقين، يدفعه الرجلان. في أقل الأماكن وحولة من الضفة، صعدنا إلى القارب. كان سطحًا مكونًا من لوحات رفيعة ارتكزت على جذوع خيزران مفرَّغة. بينما السيدات يأخذن أماكنهن على مقعد خيزراني قديم، ويختفي الرجال في الحجرة الصغيرة لارتداء لباس السباحة، عام القارب في تمهل إلى وسط البحيرة. كان «دانو» يسير جيئة وذهابًا ويجدف بالمجداف، و«ديبو» يعطي التعليمات بصوت خافت ويسبر المياه من حين إلى آخر، باحثًا عن مكان مناسب للسباحة. كان أبي وضيوفه يضحكون بأصوات مجلجلة في الحجرة الخيزرانية. كنت واقفًا بجانب المقعد الذي تجلس عليه النساء وأحملق في الضفاف، فبدت كل حركة في أوراق الشجر المضاءة

t.me/qurssan

بنور القمر، وكل صوت، منشأهما ما وراء الطبيعة. رأيت أن السباحة عمل خطير وأهوج؛ ألم تخبرنا «ساتيه» أن البحيرة تبلغ آلاف الأمتار من العمق؟ وأن أفعى عملاقة تعيش فيه؟ تشكلت حلقات دائرية على سطح المياه من دون سبب واضح، وتلألأ ضوء القمر بين تموجاتها المنسابة. هل ثمة ما يتحرك هناك في الأعماق؟ صرخت من الخوف، عندما ظهر شيء أبيض على سطح المياه بجانب القارب، ولم يهدِّئ مرح الآخرين من روعي إلا جزئيًّا، عندما تبين أن الشيء الأبيض هو السيد «بولينجر»، الذي ترك نفسه ينزلق في المياه من دون ضجة من أجل أن يخيفنا. لاحت أجساد الرجال بيضاء في ضوء القمر. غطسوا في المياه أحدهم وراء الآخر، ثم طفوا إلى السطح وهم ينفثون ويزفرون. امتلأ حوض الجبال فجأة بمزيج من صدى الأصوات وطرطشة المياه. لم أستطع أن أفهم كيف يمكنهم أن يتصرفوا بمثل هذا الاستهتار. كان «دانو» ينعطف بالقارب انعطافات تكاد تبقيه في المكان نفسه. يجلس «ديبو» القرفصاء في ظل الحجرة الخيزرانية، لم أرَ منه سوى جمرة سيجارته المتوهجة في الظلام. بث هدوءُه بعض الطمأنينة في نفسي. ذهبت فجلست إلى جانبه، وسألته هامسًا:

t.me/qurssan

ـ هل صحيح أن «نينا كوميل» تأكل الأطفال؟

أجاب «ديبو» بنبرة تنم عن نفاد الصبر:

ـ هراء.

لم يعلق على كلماتي، بل انحنى إلى الأمام، وأطلق صرخة تحذير للرجال في البحيرة. هتف على سبيل التصريح لي:

ـ نباتات مائية.

ثم:

ـ المكان حول القارب هو المكان الوحيد الآمن للسباحة.
النباتات المائية تمسك بالإنسان ولا تتركه حتى يغرق.
أنا أعرف «تيلاجا هيدونج».

سحرتني المياه وأنا أحدق فيها، وتمنيت لو يخرج أبي منها ويعود إلى القارب الآمن. لم أضطر إلى الانتظار طويلًا. طاردت برودة الليل الوشيك السبَّاحين إلى القارب، فوقفوا يدبدبون بأقدامهم على أرضه، ويزفرون، وينشفون أنفسهم بالمناشف. ثم بدأوا، في هبة جنون، يقفزون مثل الضفادع، ويركض بعضهم وراء بعض، حول المقعد الذي تجلس النساء عليه. طقطقت الأرضية الخشبية، وارتج القارب كله وتخلخل. صاح «ديبو»:

t.me/qurssan

ـ انتبهوا! الخيزران قديم!

لكن لم يلقِ أحد آذانًا مصغية إليه. هرب السيد «بولينجر» من الآخرين الذين أرادوا أن يؤرجحوه من يديه وقدميه ويلقوه في المياه، وصعد إلى سطح الحجرة المسطح. لحق به أبي والضيفان الآخران. أطلقت النساء صيحات التشجيع. استهوتني هذه الملاحقة، فسرت حول الحجرة إلى أن بلغت أقصى حواف القارب، كي أرى كيف سيتمكن السيد «بولينجر» من الفرار. لا أتذكر أكثر من هذا. تصاعد صوت تشقق الخيزران، وصراخ غامض من حولي، ووقعت في الظلام جليدي البرودة.

* * *

عندما عدت إلى وعيي، وجدت نفسي راقدًا في سريري. رأيت مصباحًا خافتًا مضاءً عبر غلالة الناموسية البيضاء. كان أبي واقفًا عند قدم السرير ينظر إليَّ. لم أعرف ما الذي حدث. في البداية، ظننت أنني أرى ضوء القمر والبحيرة في منامي، لكن شعري كان مبللًا، وكنت أشعر بطعم الوحل في فمي. تحركت وناديت. فتح أبي الناموسية، ظهرت «البابو» خلفه، وفي يدها كأس من سائل يتصاعد منه البخار. شربت السائل وأنا مستند على أبي، ثم عدت إلى النوم في الحال. لم أسمع حقيقة ما حدث إلا بعد

t.me/qurssan

مضي عدة أيام. لم يقدر القارب، الذي كان يحمل أكثر من طاقته، أن يصمد تحت وطأة الركض والتسلق إلى سطح الحجرة الخيزرانية. لم تستطع لوحات أرضيته، التي كانت نصف متآكلة بسبب القِدم، أن تتحمل ثقل الرجال المتصارعين. بلغ الثقل منتهاه على طرف واحد، انكسر ذلك الجزء، وانقلب، واختفى في المياه. على الرغم من أنهم ارتعبوا أشد الارتعاب، وأصابتهم شظايا الخيزران والخشب الحاد بجراح، فإنهم استطاعوا جميعهم أن يخرجوا إلى السطح على الفور. بقيت أنا وحدي مفقودًا. غطس «ديبو» في المياه، ليبحث عني بين الخشب الطافي والخيزران المضفَّر. بعد برهة قصيرة، وجدني أبي، وأنا نصف مختنق، وفي حالة ذهول، بين جدران الحجرة الخيزرانية المتداعية. عندئذ ركبوا الجزء المتبقي من القارب، وعادوا إلى الضفة.

سألت وقد راودني إحساس سابق بحدوث شيء فظيع، جعل قلبي يخفق بشدة:

ـ و... «ديبو»؟

أجاب أبي:

ـ «ديبو» علق بالنباتات المائية.

t.me/qurssan

قالها بتمهل وصوت خافت، كما لو أنه يتمنى ألا أسمعه، ثم:

ـ لقد مات «ديبو».

ما كان ليحل بي أكبر من هذه المصيبة. أشد ما أفجعني هو إدراكي أن «ديبو» لقي مصرعه وهو يبحث عني. لم أستطع أن أتخلص من التفكير بالنباتات المائية التي أخبرني عنها في تلك الليلة على البحيرة. على مدار ساعات الليل والنهار، كنت أشعر بالضيق من تخيل منظره الفظيع وهو يصارع في محاولة للإفلات من بين جذوع النباتات القاسية اللزجة. أستيقظ من النوم وأنا أصرخ المرة تلو المرة. وأنا مصاب بالحُمى، كنت على وعي بوجود أشخاص حول سريري: أمي، والسيد «بولينجر» بضمادة حول رأسه، وأبي. أخيرًا، جاء «أوروخ» في إحدى المرات، لكننا لم نكد نتبادل كلمة واحدة. كان «أوروخ» هادئًا وخجولًا بشكل غير طبيعي في حضور البالغين، ومتأثرًا بمرضي وجو غرفة نومي المضاءة بضوء خافت. ما كان يعذِّبني هو أنني السبب في موت والده. راح كل منا يحدق في الآخر بصمت. قالت أمي على سبيل التوضيح:

ـ جاء «أوروخ» ليودعك. سينتقل إلى بيت آخر.

وسمعت ما الذي سيحدث. سيسكن «مندور» جديد مع

t.me/qurssan

أسرته في البيت الحجري المطل على النهر؛ ستذهب «سيدريس» وأولاد «ديبو» للسكن عند أحد أقربائهم في قرية من القرى الواقعة في الجبال.

لم أعرف قَطُّ ما الذي رجَّح كفة الميزان في آخر الأمر: أكان حزني الشديد على فراقي الوشيك عن «أوروخ»، أم إحساس والديَّ بالذنب تجاه ابن «ديبو»، أم قلق الأم «سيدريس» وطموحها، المرأة ذات الطبع الرقيق؟ ذات يوم، جاءت إلى بيتنا، لأول مرة منذ أن كنت طفلًا صغيرًا، وقد ارتدت ثيابًا في غاية الأناقة، ووضعت زهرة صغيرة ذات رائحة عطِرة في عقدة شعرها، ودهنت جبينها ببودرة «التلك الأبيض». بقيت وقتًا طويلًا عند أمي؛ سمعت صوتيهما في غرفة النوم المحاذية لغرفتي، لكنني لم أفهم كلمة واحدة من حديثهما. القرار الذي اتُّخذ في تلك الغرفة كان مصيريًّا. سيأتي «أوروخ» ويسكن عند خادمنا، ابن أحد عمومة «ديبو»، وسيذهب إلى «المدرسة الهولندية-المحلية» في مدينة «سوكابومي».

عندما أسترجع في ذاكرتي زمن دراستنا الابتدائية، أرى أيام تلك السنوات كلها منصهرة في مشهد واحد، على الأرجح لأن الانطباعات نفسها تتعاقب بانتظام ومن دون أي تغيير؛ كل يوم، في الصباح الباكر، الذهاب بالسيارة

t.me/qurssan

إلى محطة القطار الصغيرة، التي تبعد نصف ساعة عن المزرعة. الأعشاب والبراعم تلمع بالندى الكثيف، الشمس في مطلع بزوغها، والصباح يلقي بضبابه الأزرق على كل شيء. السكان الأصليون يذهبون بالفاكهة والسلع الأخرى إلى المحطة لإرسالها في وقت مبكر إلى السوق؛ يسيرون بخطى بطيئة منتظمة على الطريق، منحنين تحت ثقل العصي المعلقة أحمالهم على أطرافها. فلاح يسوق جواميس إلى حقول الأرز، يساعده صبيان صغار، يطلقون صرخات حادة لإبقاء الحيوانات على جانب الطريق العشبي. كان «أوروخ» يعرف بعضًا منهم، يخرج نفسه من شباك السيارة، ويهتف لهم بالتحية. من الجهة المعاكسة، كانت العاملات في قطف الشاي وعمال المزرعة يتوافدون في قوافل بعضها مع بعض. تلتفت النساء إلينا، ويضحكن من تحت ثنيات شيلانهن الملفوفة حول رؤوسهن. يخرج الأطفال الصغار، والكلاب، والقطط من بيوت القرية، ويختفون في الظلال التي ترخيها الأشجار العالية. في المحطة، يسود دائمًا الزحام نفسه. السلال مصفوفة بعضها فوق بعض، وتعج بالناس الذين ينتظرون أول قطار مقبل، كشك يتيح الإمكانية لتناول وجبات مبكرة. كنت أنا و«أوروخ» غالبًا ما نستسلم لإغراء وجبة من الـ«رودجاك»، فاكهة غير ناضجة في صلصة

t.me/qurssan

حارة، فنلتهمها بسرعة من ورقة موز مطوية. ثم يصل القطار إلى المحطة: القاطرة البخارية الصغيرة وهي تسحب وراءها مقاصير من دون شبابيك. في المقاصير وُضعت المقاعد الخشبية بالطول. مع أنه كان بوسعي أنا و«أوروخ» أن نسافر في الدرجة الثانية، كنا نختار المقاصير المزدحمة، حيث غالبًا ما نحصل على قطعة من الفاكهة أو قبضة من الفول السوداني، وحيث يمكنك دائمًا أن تسمع أو تشاهد شيئًا. في ذلك الطريق الممتد عبر أراضي «بريانجر» الجبلية، أعرف كل حجرة، وكل عمود تلغراف، وكل جسر. أستطيع بعينين مغلقتين أن أرسم المناظر الطبيعية على طرفي الطريق: المصاطب المنحدرة في حقول الأرز، التلال مخروطية الشكل، كثيفة الأحراش، التي تتحول في البعد إلى سلسلة جبلية زرقاء، مخازن الحصاد في الحقول، بيوت القرى بين غابات الخيزران، وهنا وهناك مبنى صغيرًا مدهونًا بالكلس في محطةٍ، يقف فيها الناس الذاهبون إلى البازار مع أغراضهم في انتظار القطار. عندما نصل إلى «سوكابومي» تكون الشمس قد أشرقت، وقسَّمت العالم إلى ضوء متوهج وظل منعش. نسير مسافة قصيرة في المدينة ـ فقد كانت «سوكابومي» مدينة في مفهومنا ـ ثم ينشطر طريقنا، فيذهب «أوروخ» إلى مدرسته، وأنا إلى مدرستي. كان ثمة اختلاف بسيط

t.me/qurssan

في المواد التي نتلقاها في المدرسة؛ «أوروخ» وحده يتلقى مادة إضافية هي اللغة الهولندية. كانت الساعات التي نقضيها في صفوف المدرسة متماثلة إلى حد بعيد. سواءً عندي أو عنده لا ينتهي ضجيج الأطفال وهم يرددون الدرس في جوقة واحدة، ووقع الخطوات المتثاقلة للصوت الموجه، وصرير أقلام الجرافيت وأقلام الحبر، بينما في الخارج ينبعث حفيف الأشجار، ويترجرج الهواء الساخن فوق أسفلت الطريق. في الساعة الواحدة ظهرًا، يلتقي أحدنا بالآخر مرة أخرى عند نقطة محددة. كنت إذا ما اقتربت منها راكضًا، رأيت «أوروخ» واقفًا في ظل شجرة، حافي القدمين، لكن في ثياب أنيقة حسب اعتقادي، في بنطال من المخمل بحزام نادي الكشافة، وعلى رأسه القبعة السوداء الخاصة بالشباب المسلمين. كنا غالبًا ما نشتري مصاصات بوظة فاقعة الألوان ببضعة سنتات، بوظة متجمدة تحيط بعود رفيع بوسعك أن تمصها، أو ندلل أنفسنا في القطار بتناول حلوى دبقة للغاية، لها طعم جوز الهند. في هذا الوقت من النهار، يكون الحر قد بلغ أوجه، حتى في «كيبون دجاتي»، الأكثر ارتفاعًا. أول ما نفعله عند وصولنا إلى البيت هو الاغتسال: أمضي أنا إلى الحمام، و«أوروخ» إلى البئر وراء المباني الملحقة بالبيت. على الرغم من أننا في ساعات الظهر كنا

t.me/qurssan

لا نزال ننشغل كثيرًا بألعابنا القديمة في الحديقة وعلى النهر، فإننا بدأنا نهوى أشياء أخرى شيئًا فشيئًا. أخذنا نجمع الطوابع البريدية، والشرائط التي عليها ماركات السيجار، وصور السيارات والطائرات. كان «أوروخ» مغرمًا بالفئة الأخيرة على وجه الخصوص. يستطيع أن يقلد الصوت الهادر لطائرة آخذة بالهبوط في منتهى الدقة. يمشي بذراعين مبسوطتين في حلقات دائرية، يقفز، ويجلس القرفصاء، ويزحف، ويتهاوى أخيرًا على الأرض وهو يطلق أصواتًا متتابعة تمثل كارثة جوية. لم يكن بوسعي أن أقلد هذا الشيء قَطُّ. كان نوع من الحياء، ربما الخجل أو العجز عن الانهماك الكامل في اللعبة، يعيقني عن إطلاق الصرخات والإشارات على النحو الذي كان يفعله «أوروخ». في ذلك الوقت اكتشفت متعة القراءة أيضًا، الأمر الذي كان يستهوي «أوروخ» في الحدود الدنيا، على أقصى تقدير إذا احتوت الكتب على صور. كان يبدع في الرسم. يبدي ولعًا شديدًا بالأشكال المتناسقة الموجودة في الكتب المدرسية، الدوائر والمثلثات المرسوم بعضها داخل بعض أو حول بعض بمهارة، والملونة بظلال واضحة معبِّرة. لأنني كنت أعدُّ وجود «أوروخ» بيننا من الأمور البديهية، لم أضع في حسباني آنذاك المكانة الغريبة التي يحتلها «أوروخ» عندنا، تلك

t.me/qurssan

المكانة الواقعة في الوسط بين ساكني البيت والمستخدَمين. كان يأكل وينام في جناح الخدم، لكنه يقضي معظم النهار معي. تركت أمي هذا كله يحدث كما يحلو له أن يحدث. لم أفهم إلا بعد ذلك الوقت بكثير أن صداقتي أنا و«أوروخ» كانت تعني بالنسبة إليها تخفيفًا من أعبائها. أصبحت أقل انعزالًا من السابق، واشترت حصانًا أخذت تتجول عليه في حقول الشاي، بصحبة السيد «بولينجر» على الأغلب. كان أبي لديه مشاغل كثيرة ويسافر في أغلب الأحيان. في أيام العطل كان «أوروخ» يذهب لزيارة «سيدريس». كنت أرافقه على العموم. كانت «سيدريس» وقتذاك تعيش مع أولادها في بيت صغير من بيوت القرية، بدا لي مهملًا وقذرًا بشكل غير معقول، على عكس بيتهم القديم المطل على النهر. كان جد «أوروخ» قد توفي واختفت معه الكراسي الهزازة أيضًا. كانت ستارة الخرز اليابانية وحدها تذكِّر بأيام العز الماضية. الأطفال الصغار في ثيابهم الرثة يحتشدون حولي أنا و«أوروخ» حال وصولنا، يقفون في وضعية من الاحترام والإعجاب الشديدين، لكنهم يبلغون من الحياء ما يمنعهم من طرح الأسئلة. لم يكن «أوروخ» يحتاج إلى التشجيع في مثل هذه المناسبات. يقف وسط عائلته والمهتمين ممن قدموا إليه من أهل القرية، ويحكي لهم عن القطار، وعن «سوكابومي»، وعن الدروس التي

t.me/qurssan

يتلقاها في المدرسة. كانت «سيدريس»، التي تبدو على وجهها وقامتها آثار الذبول بوضوح متزايد، تصغي إلى ابنها بفخر واعتزاز. تقاطعه أحيانًا بهتافات قصيرة، أو بطقطقة من لسانها تستطيع أن تعبر بها بطرق لانهائية عن مشاعر في غاية التباين والتنوع. كانت ابنة عم «أوروخ»، «ساتيه» التي بقيت تسكن عند «سيدريس»، تستغل على العموم ساعات السرد تلك، فتسحب أحد الأطفال الصغار إليها، وتجلسه بين ركبتيها، وتنظف رأسه من القمل. كانت «ساتيه» فتاة جميلة، تبلغ نحو السادسة عشرة من عمرها، تميل إلى البدانة في قفطانها الرث. لم يحدث قَطُّ أن شعرت بأنني أجنبي بين هؤلاء الناس، على العكس تمامًا، كنت حتى في هذا البيت الريفي المتداعي، ذي الفناء الموحل، أشعر بالراحة أكثر منه في غرف بيتنا المظلمة الجوفاء. كنت إذا ما مشيت مع «أوروخ»، بعد انتهاء هذه الزيارات، في الطريق الصخري المنحدر صوب المزرعة، راودني شعور بأنني ودَّعتُ عائلتي للتو. لم يخطر في بالي قَطُّ أن أضع مساواتنا الكاملة في الحقوق موضع التساؤل، في الأمور المتعلقة بي وبـ«أوروخ». على الرغم من أنني كنت على وعي، وإن بشكل جزئي، بوجود اختلاف في العرق والمنزلة بيني وبين خدم البيت، و«البابو»، و«دانو» البستاني، فإن حياة «أوروخ» كانت قد تشابكت مع حياتي

t.me/qurssan

إلى حد أنني لم أشعر حياله بهذا الفرق. لذلك اندهشت أعظم اندهاش، عندما لاحظت للمرة الأولى أن علاقة «أوروخ» بي وبوالديَّ تثير سخرية الخدم ونفورهم. في البداية، تبدى ذلك في أشياء صغيرة، مثل مناداته بـ«السيد أوروخ» على سبيل السخرية، التندر عليه فيما بينهم، الاستهزاء به عن طريق كلمة أو إشارة، ولكن تدريجيًّا أخذ انتقادهم المتزايد شكل مقاومة علنية تتبدى على نحو أقل أو أكثر في إنجاز الأعمال المطلوبة منهم. حينذاك علمت أيضًا أن أبي هو الذي يدفع تكاليف دراسة «أوروخ»، ولم أرَ شيئًا غير طبيعي في هذا الأمر، نظرًا للطريقة التي مات بها أبوه «ديبو». بقي رأي «أوروخ» في هذا الوضع غامضًا. ظل دائمًا الشخص نفسه، وبقي يتردد على بيتنا، وعلى المباني الملحقة بالبيت من دون أي اكتراث. لا أتخيل مقدار الوحدة التي كنت سأشعر بها في طفولتي، لو لم يكن «أوروخ» موجودًا في حياتي. لعلي كنت سأشعر بصدمة أشد وطأة من طلاق والديَّ أحدهما من الآخر. لأن أمي أوكلت أمري بشكل كامل تقريبًا إلى «البابو»، وإلى «سيدريس» وعائلتها، وإلى «أوروخ»، منذ أن كنت طفلًا صغيرًا، لم تكن بالنسبة إليَّ أكثر من شخص غريب في واقع الأمر. انتهت فترة العزلة ونوبات الصداع التي كانت تنتابها، وأعقبتها، بعد الفاجعة التي حدثت في

t.me/qurssan

تلك الليلة على «التيلاجا هيدونج»، فترة من القلق والنشاط شبه المحموم. أخذت تركب الخيل، تخرج للتنزه، تذهب إلى «سوكابومي» للتسوق. على مدى أيام طويلة، كانت الخياطة العجوز تترك إبرة ماكينة الخياطة تتراقص في علو وهبوط على الأقمشة الجديدة، بينما تهيم أمي على وجهها في أرجاء البيت متوترة الأعصاب، تتهاوى، فقط من حين إلى آخر، على كرسي من أجل أن تمزق رسائل أو تلعب لعبة «الحظ بالورق». زارنا ضيوف عدة مرات، لكن على العموم كان الضيوف هم السيد «بولينجر» الذي اعتاد أن يبقى بصحبة أمي، سواء في أثناء احتساء الشاي في الظهر أو المساء، أو في أثناء التنزه في ساحة المزرعة. لاحظت أن الفتور يتزايد شيئًا فشيئًا في علاقة أبي وأمي التي لم تكن حميمة أصلًا. أحيانًا، كنت أسمع صفق الأبواب وأصوات الشجار، وأنا راقد في سريري في الليل. ذات مرة، رأيت أمي تبكي في الحديقة، بعد أن ذهبت إليها بحجة أنها تريد إطعام الحمام. بعد ذلك بقليل، رحل السيد «بولينجر» إلى أوروبا. لم أستطع إلا بعد زمن طويل أن أخمن العلاقة بين هذه الأشياء كلها، التي رأيتها في ذلك الوقت تفاصيل مربكة وقليلة الأهمية.

عندما أخبرني أبي في آخر الأمر أن أمي ستسافر لمدة

t.me/qurssan

غير محدودة، تقبلت هذه الحقيقة، العصية على الفهم، ببساطة، مثل شيء من تلك الأشياء التي يجب على الطفل أن يتقبلها ويتكيف معها على ما يبدو، لكن «أوروخ» لاح عليه أنه ابتهج في سرِّه، عندما أطلعته على هذا الخبر، وعلَّق بشيء لم أستطع أن أفهم مغزاه. اتضح لاحقًا أن الخدم لم يكونوا عميان البصر والبصيرة، وأن «أوروخ» علم بما كان يحدث في بيتنا من جراء تهامسهم. لم يتفوه معي بكلمة واحدة عن هذا الموضوع، حتى في وقت لاحق، عندما كبرنا وتحدثنا أكثر من مرة عن مثل هذه المواضيع. كل ما لاحظته عليه بهذا الشأن هو أمارات السخرية والاحتقار، إذا ما ذكر اسم أمي.

سبقت رحيل أمي أيامٌ من الاضطراب المحموم. امتلأت الشرفة الداخلية بالحقائب والصناديق، التي وضع فيها جزء كبير من متاع البيت والبياضات. بقي أبي غائبًا عن الأنظار في تلك الأيام. في نهاية الأمر، جاءت السيارة ذات صباح، وفي أعقابها شاحنة من شاحنات المصنع التي حُمِّلت بتلك الحقائب. أغدقت عليَّ أمي، التي لم تتكرم عليَّ بمظاهر الحنان قَطُّ، بدموعها وعناقاتها إلى حد أنني فقدت توازني، فبكيت بحرقة، عندما غادرت السيارة. كانت المدرسة قد سمحت لي بالبقاء في البيت

t.me/qurssan

يومًا واحدًا بمناسبة هذا الوداع، أما «أوروخ» فقد ذهب إلى «سوكابومي» كالمعتاد. أخذت أذرع البيت الخاوي الذي أعطى انطباعًا أكثر برودة من أي وقت مضى، بعد أن انتزعت اللوحات والمزهريات والمفارش عن بعض أجزائه. في الشرفة الداخلية، لا تزال الكراسي مسحوبة إلى جانب من أجل إفساح مكان للصناديق، ولا يزال القش ونشارة الخشب منتشرين على الأرض. وأنا واقف هناك، جاء أبي إلى البيت من المصنع، الذي كان قد انسحب إليه في أثناء الوداع. تهاوى على كرسي من تلك الكراسي، تنهد، ومسح العرق عن وجهه ورقبته. للمرة الأولى في حياتي، رأيت فيه شيئًا مختلفًا عما عهدته فيه من الآمر الناهي، القاضي الصارم، المسيطر المطلق على حياتي في أثناء طفولتي. لفت انتباهي أن الشعر في قمة رأسه قد أصبح خفيفًا، وأنه مهموم ومتعب. ذهبت إليه.

قال أبي في جمود:

ـ هكذا إذن.

ثم:

ـ أأنت هنا؟ تغيير كبير، أليس كذلك؟ دع الخادم ينظف هذا الوسخ.

t.me/qurssan

ربت على كتفي شارد الذهن وتابع:

ـ اذهب للعب.

وعندما ترددت في الانصراف، أضاف:

ـ كنت سآخذك معي إلى الحقول بعد الظهر، لكنَّ شخصًا سيأتي لمقابلتي في المصنع.

قلت سريعًا لأطمئنه:

ـ عندما يأتي «أوروخ»، سنذهب لصيد الأسماك.

قطَّب أبي ما بين حاجبيه، وتنهد من جديد، ثم قال وهو ينهض عن مجلسه ويمضي إلى غرفة النوم:

ـ حسنًا، حسنًا! لك أن تلعب مع «أوروخ».

هكذا بدأت مرحلة جديدة في حياتنا. كنت حينذاك في الصف الرابع من المدرسة الابتدائية.

أحد الأحداث المهمة بالنسبة إلينا في تلك السنوات، كان مجيء «خيرارد ستوكمان»، العامل الذي حل محل السيد «بولينجر». كان شابًا نحيفًا وطويلًا بشكل غير طبيعي، يبدو وجهه وكأنه قطعة أُخذت من خشب لامع ذي لون بني فاتح. وصل إلى المزرعة، مرتديًا بدلة من قماش خاكي بنطالها قصير، حاسرًا ساقيه المشعرتين

t.me/qurssan

بعظامهما البارزة في حذاء رياضي. كان الجزء الأكبر من متاعه يتكون، ما عدا بضع حقائب كبيرة، من عدة الصيد: بنادق، بنادق هوائية، خناجر، عصي مغطاة بطبقة من الحديد، شبكات صيد السمك وسنانير، حقائب صيد مبقعة ومجعدة، خيمة وأدوات لازمة لنصبها موضوعة في أكياس خيش. ظهرت حيوانات محنَّطة وجلود مصنَّعة من عدد من الصناديق التي نقلتها الشاحنة إلى المزرعة. كان من البديهي أن نقف أنا و«أوروخ» ونراقب بانبهار هذه الحمولة المثيرة للاهتمام وهي تُفرغ من الشاحنة. سكن «خيرارد ستوكمان» في جناح صغير غير بعيد عن بيت المدير. عندما حمل العتالون جميع أغراضه إلى داخل البيت، صرفهم وبدأ يفتح صناديقه. بدا وكأنه يعتبر وجودي أنا و«أوروخ» من الأمور الطبيعية للغاية. أشركنا في توضيب ممتلكاته وترتيبها. طلب منا النصيحة عن المكان الذي يجب أن يعلق فيه ما جمعه من أسلحة «الداياك»، التي أثارت خيال «أوروخ» بأسنتها الحادة وخطاطيفها إلى حد بعيد. حمل في يده رمحًا من تلك الرماح وأخذ يطارد أعداءً افتراضيين إلى أقصى أركان الجناح، لاعبًا دور المطارِدين مرة، ودور المطارَدين مرة أخرى. كنت جالسًا القرفصاء بين الحيوانات المحنَّطة بعيونها الزجاجية وأفواهها المفتوحة التي صُبغت من

t.me/qurssan

الداخل بالورنيش الأحمر. كان هناك قرد، وفهد صغير، وسنجاب طائر، وتمساح أمريكي، وطيور، وسحالٍ، وصندوق زجاجي مليء بالأفاعي المحنَّطة. في برطمانات مربى ملفوفة بجلود الحيوانات، يعوم في سائل أصفر ما لا يمكن وصفه من أشلاء حيوانات، وقطع جلود، وأشياء أخرى من هذا القبيل. وقف مالك هذه الأشياء الرائعة على كرسي وعلَّق جلد آكل نمل على الحائط. أجاب عن أسئلتنا من دون كلل أو ملل، وأخبرنا عن نفسه. إنه ابن ضابط من مدينة «باندونغ»، وقد كرس حياته لجزيرة جاوة، والصيد، وحياة البرية. كان على خصام مع والديه، بسبب اعتراضهما على اختياره هذه المهنة. كان ينظر إلى هذا الأمر من منطلق فلسفي، فقد قال:

ـ إما أن تعود الأمور إلى نصابها أو لا تعود، ولكن هذا أمر آخر. إنني بحاجة إلى فضاء من حولي. لم أُخلق للمكاتب والثكنات، ولا أريد الذهاب إلى هولندا أيضًا. ذهبت إليها بضع مرات مع أبي في أثناء إجازاته، ورأيت أن ذلك كفَّى ووفَّى. هذه منطقة رائعة. هل تعلمان أن المرتفعات هنا مليئة بالخنازير البرية؟ يوم السبت، سأصعد إلى الجبال، إذا سنحت الفرصة.

وسنحت له من الفرص ما يكفي. لم تمضِ عطلة أسبوع

t.me/qurssan

واحدة إلا ورأينا «خيرارد» (كما سميناه من اللحظة الأولى تقريبًا) وهو يمضي في الطريق الممتد عبر حقول الشاي والمؤدي إلى الغابة الجبلية، مسلحًا ببندقية وخنجر، وفي عقبَيه عتال يحمل الخيمة والزاد. كنت أنا و«أوروخ» نعايش رحلات الصيد تلك عن كثب. اعتدنا أن نجلس عند «خيرارد» في الجناح الخاص به في المساء، ونصغي إلى ما يسرده علينا من قصص وهو ينظف بندقيته ويلمعها ويحنِّط أجزاء من غنائم صيده، بينما غليونه بين شفتيه. في إحدى المرات، دفن رأس خنزير في الحديقة، لينظفه النمل. غرقت أنا و«أوروخ» في التخمينات عن مدة هذه العملية، وأردنا أن نخرج الرأس بعد عدة أسابيع لنرى المآل الذي آل إليه، لكن «خيرارد» نصحنا بشدة أن ننتظر شهرًا آخر، وفعلًا، بعد أن مضت هذه المدة، ظهرت الجمجمة بيضاء تقريبًا من تحت التراب (لكن برائحة لا أستطيع أن أقول إنها طيبة). نظف الجمجمة وصبغها بورنيش عديم اللون، ثم قدمها هدية إليَّ أنا و«أوروخ». أصبحت الجمجمة أغلى شيء عندنا، تناوبنا على وضعها بجانب سريرنا، وأخذناها معنا إلى المدرسة من حين إلى آخر، كي نبهر بها رفاقنا في الصف. ولكن ماذا يساوي هذا كله مقارنة بالشرف الذي أحظانا به «خيرارد»، عندما قرر أن يأخذنا معه في رحلاته الأسبوعية؟ بخنجر في

t.me/qurssan

الحزام، وبطانية مشدودة على الظهر، مشينا خلف دليلنا عبر الدروب الصخرية الصاعدة في الأحراش. كانت تيجان الأشجار العظيمة، اللائحة فوق رؤوسنا في البعد، المتضافرة في سقف أخضر، لا تسمح بعبور سوى قليل من ضوء النهار، فأخذنا نتقدم وكأننا نسير في حوض سمك نصف مظلم. تحت السقف الأخضر، تفوح رائحة حادة من الورق الرطب، ومن طبقات النباتات التي تتعفن ببطء وتتحول إلى تراب أسود. الماء النقي جليدي البرودة يجري في خرير بين الآجام، في تيارات صغيرة عرضها عرض الكف، أو على شكل جداول في حوض نهر امتلأت قيعانها بأحجار فضية، لامعة ملساء من جراء التيار. هناك دائمًا صوت شلال متناءٍ من مكان ما، والجو مشبع بقطرات المياه الصغيرة. كان الصمت تحت هذه القبة الخضراء الهائلة يبلغ من الهيبة أنني لم أجرؤ أنا و«أوروخ» في البداية على الحديث إلا بصوت خافت. كانت ثمة أشياء كثيرة حولنا، في أعماق الأخاديد الظليلة، كثيفة الأحراش، وفي الجذوع الملتوية المتفحمة بفعل البرق، تبث الرعب في نفوسنا، لكن قامة «خيرارد» النحيفة أمامنا أشعرتنا بأمان لا حد له. كان قد اكتشف كوخًا قديمًا، في حضيض ما بين قمتين من قمم الجبل، وحوَّله إلى منزل للصيد. كان هذا المسكن يدين بمظهره الرائع

t.me/qurssan

للإصلاحات التي أجراها «خيرارد» عليه. ثقوب السقف والجدران مسدودة بأغطية علب البسكويت، وقطع خشب من أشكال وألوان شتى، وضفائر مصنوعة بشكل بدائي من الجذور الهوائية المقطوعة من أشجار الغابة. الجدار الآيل للسقوط مدعوم بحجارة مصفوفة بعضها فوق بعض بعناية ودقة. يحتوي الكوخ من الداخل على مقصورتين للنوم، يسمِّيهما «خيرارد» بـ«جحري الأرانب»، وطاولة متخلخلة، وبضع قطع من جذوع الشجر للجلوس عليها. أما صف المسامير التي طرقت في أقوى أجزاء الحائط، فتؤدي وظيفة الخزانة. نعلق عليها الأكواب، والألبسة، والأسلحة. أخرج «خيرارد» موقدًا معطوبًا بعض الشيء من تحت إحدى المقصورتين، ووضعه على بقعة الأرض السوداء المتفحمة تحت الرواق أمام الكوخ. كانت طنجرة وعلبة سمن فارغة أدواتنا للطبخ. ذهب علي، العتال الذي يرافق «خيرارد» دائمًا، لجمع الحطب، في حين عبَّأت أنا و«أوروخ» الماء من الجدول خلف الكوخ. كان «خيرارد» قد صنع صنبور ماء من ينبوع اصطناعي وأنبوب من الخيزران، تبين أنه ذو فائدة عظيمة في أثناء القيام بمختلف الأعمال المنزلية. بالنسبة إليَّ، يرتبط الدخان الحاد المتصاعد من الحطب المحترق ارتباطًا وثيقًا بمنظر هذه الوجبات أمام الكوخ: «خيرارد» جالس

t.me/qurssan

على قطعة من جذوع الشجر، ويحرك محتوى علبة من علب لحم البقر مع الأرز؛ علي جالس القرفصاء، مدليًا ذراعيه على ركبتيه المتباعدتين إحداهما عن الأخرى؛ أنا و«أوروخ» لا نكاد نستطيع الجلوس بهدوء من الإثارة والجوع؛ الأراضي الجبلية المنحدرة تلوح أمامنا، وراء انحدار حضيض الجبل الصخري الأقرع، من فوق رؤوس أشجار الغابة في الأسفل، وقد تلونت بكل تدرجات الأزرق والرمادي والأخضر، تتخللها ظلال حادة تنم عن الأخاديد والوديان، وفيما حولها في الأسفل، تمتد السهول المتوارية في سديم الحر حتى الأفق، ترخي عليها الغيوم العابرة ظلالها العريضة. في آخر النهار، عاين «خيرارد» الكمائن التي بناها بين الأجام وفوق الأشجار من أجل ترصد الحيوانات البرية. أرانا منصة خشبية مثبتة بين غصنين من أغصان شجرة، وقال:

ـ في الليل سننتظر عليها الخنازير البرية. إنها لا تستطيع أن تشم رائحتنا، عندما نكون فوق الشجرة.

عندما اقترب المساء، أصبح الجو قارس البرودة. أخرج «خيرارد»، الذي كان قد فكر بكل شيء، كنزتي صوف من بين متاعه، فاختفيت فيهما أنا و«أوروخ» عمليًا بشكل كامل. تصاعد السديم من الوديان من جميع الأطراف

t.me/qurssan

وعزلنا عن الأرض المنخفضة. لم نكن قد اعتدنا على ذلك البرد القارس الذي اكتسح عظامنا حتى النُّقي، فأخذت أسناننا تصطك بعضها ببعض، لكن «خيرارد» ظل يشغلنا، وأرسلنا مع علي إلى الغابة لجمع مزيد من الحطب.

بعد حلول الظلام، جلسنا مدة طويلة حول النار التي أشعلها «خيرارد» أمام الكوخ، ونحن نتحدث بالسوندية، حيث من البديهي أن نتحدث بها بوجود «أوروخ» وعلي. في هذه المناسبات، أثبت الحمَّال الصامت بعادته، المتميز بعدم لفت الانتباه إلى وجوده، حتى تظنه جزءًا من الطبيعة الصامتة، أنه راوٍ موهوب. قال «خيرارد» بهيئة منظم حفلات فخور:

ـ أنصتا إليه. إنه يعرف حكايات كثيرة.

لم يمنحنا علي فرصة للتوسل إليه. اقترب في قرفصائه من النار بعض الشيء، ولف البطانية المخططة حول كتفيه. قام بهذه الحركات على نحو مهيب للغاية، وكأنها طقس مقدس. أخذ يروي الحكاية بهدوء، ومن دون تغيير في نبرة صوته ودرجة علوه، الأمر الذي يرتبط على العموم ارتباطًا وثيقًا بمفهوم السرد الجيد. لم أجد في حياتي كلها طريقة سرد للحكايات أمتع من طريقة علي. صوته يتميز بالجودة نفسها التي يتميز بها سكون الليل المحيط

t.me/qurssan

بنا، وخرير الشلالات في الغابة، وحفيف الرياح المنبعث من بين رؤوس الأشجار. لم نكن في حاجة إلى بذل أي جهد في تخيل العالم المظلم للحكايات والأساطير التي يرويها عن الحيوانات وأنصاف الآلهة والكائنات العجيبة. كان «أوروخ» يعرف بعضًا من هذه الحكايات، ويقاطع علي بذكر اسم أو واقعة قبل أن يحين أوانها، لكن الحمَّال لم يكن يستسيغ هذا الأمر. بعد مقاطعة من هذا النحو، يلزم الصمت بضع لحظات، ويبصق في النار. لم يكن أي شيء يدفع الراوي إلى استئناف سرده سوى انتظارنا الصامت، أنا و«خيرارد»، حيث في أثنائه ألكز «أوروخ» لكزة في الخفاء تنم عن أنه يجب أن يغلق فمه.

كنا نذهب في وقت مبكر لأخذ قسط من الراحة، هذا إذا كانت هناك راحة على الألواح الخشبية القاسية للمقصورتين، اللتين تتسع كل منهما لأربعة أشخاص. نتدثر بالبطانيات، وننصت إلى أصوات الليل في الخارج: يهدهدنا خرير الشلال وراء الكوخ، وحفيف الرياح في الغابة، إلى ما يشبه نصف نوم، يتبين أنه لم يدم سوى بضع ثوانٍ قليلة، عندما يعلن «خيرارد» أن وقت النهوض قد حان. على العموم يكون ذلك بين الثالثة والرابعة فجرًا. أتأهب أنا و«أوروخ» في طرفة عين، ونحن في حالة من

t.me/qurssan

الإثارة والانفعال لا نشعر معها بأي تعب. يشعل «خيرارد» مصباحه اليدوي، فتتحرك ظلالنا على جدران الكوخ مثل الوحوش والأشباح. نتلقى تعليمات بأن نمشي بهدوء ونلزم الصمت، عندما نصل إلى الغابة، ثم نبدأ مسيرنا في رتل أحادي، «خيرارد» في مقدمة الرتل وعلي في آخره. في ظلام الغابة المتوعد، أنسى أنا و«أوروخ» الخطط الكثيرة التي وضعناها في البيت عن هذه الرحلات. يغيب عن بالنا، ما نوينا عليه في البيت، بالتسلل في الغابة بخناجر مسلولة في أيدينا، على أهبة الاستعداد للانقضاض على الفهود والخنازير البرية. لا نتذكر شيئًا من هذه «العنتريات» إلا عندما نرجع سالمين غانمين، ونجلس على المنصة الخشبية المثبتة بين أغصان الشجرة. الغابة يملأها هسيس لا يتوقف، لكن علي المستحوذ على المصباح اليدوي يطلب منا بهدوء أن نصبر. بين الحين والآخر، يلقي شعاعًا من الضوء في الظلام، فنرى خنزيرًا أو اثنين من الخنازير البرية، أو قطيعًا بأكمله في بعض الأحيان، في فسحات ما بين الأشجار، فيدوِّي صدى الطلقات النارية من حولنا، ويمتلئ المكان كله بطقطقة الأغصان، ووقع أقدام الحيوانات الهاربة عبر الأحراش. كان «خيرارد» مرشدنا، ومستشارنا، ومرجعنا المعصوم عن الخطأ في ذلك الوقت ـ وبقي هكذا فترة طويلة بعد

t.me/qurssan

ذلك ـ فنعود إليه عند كل مشكلة تقض مضجعنا. كان العاملون في المصنع يعتبرونه شخصًا غريب الأطوار، لأنه لا يحب تعاطي الشراب ولعب الورق، ولا يستسيغ الرحلات الأسبوعية إلى النادي في «سوكابومي». كان واحدًا من أولئك الناس الذين يستطيعون قضاء وقت ممتع بمفردهم تمامًا. لم يحدث قَطُّ أن رأيناه من دون عمل، إذا ما ذهبنا إلى بيته في المساء. كان يحبنا ويعتبرنا من أفراد البيت الذين لا يخبئ عنهم أسراره. نتحدث بالهولندية حينًا وبالسوندية حينًا آخر، حسب الظروف. كان «أوروخ» يفهم الهولندية، ويستطيع أن يكتب بها أيضًا، لكنَّ نوعًا من الخجل يعيقه عن أن يعبِّر عن نفسه بهذه اللغة. كنا إذا ما شجعناه على التحدث بها، ظهرت علامات الاستحياء على وجهه، وتمتم بما يدل على الرفض، لكن لم تكن تفوته كلمة واحدة من الأحاديث التي أخوضها أنا و«خيرارد» بالهولندية.

أصبح تواصلي مع أبي أقل بكثير مما كان عليه في الماضي. كان يعمل في المصنع أوقاتًا طويلة، ولا يعود إلى البيت إلا في نهاية النهار. أراه على العموم في أثناء الطعام فقط. يأكل بسرعة، وعادة من دون أن يتفوه بكلمة واحدة. كانت أفكاره في مكان آخر، مرتبطة

t.me/qurssan

بعمله، بأشياء لم يكن بوسعي أن أتصورها. لم أكن أعرف عنه أي شيء، ولا عرفت ما الذي يجول في خاطره. لقد فقد بعضًا من وزنه، ونحف وجهه بعض الشيء. اتسعت رقعة الصلع على صدغيه وقمة رأسه، وسارت تجعيدتان عميقتان من جانبي أنفه إلى زاويتي فمه وذقنه، الأمر الذي أضفى عليه مظهر الإنسان الصارم ولكن في الوقت نفسه المثير للشفقة. كنت أعلم أن العاملين في المزرعة ينظرون إليه على أنه رجل ملتزم، دقيق بشكل مبالغ فيه، لا يرحم نفسه ولا مرؤوسيه إذا تعلق الأمر بالأخطاء أو الإهمال. ما كان يواتيه من هبات شبه صبيانية من المرح، والضحك، والمزاح مع العاملين أو الضيوف، أصبح في عداد الماضي. الحق أننا لم نعد نستقبل ضيوفًا قَطُّ، ويبدا أن ثمة مسافة قد نشأت بينه وبين العاملين، منذ ما حدث مع السيد «بولينجر». بعد العشاء، كان أبي يجلس في الشرفة الداخلية التي تعطي انطباعًا، وقد جُردت من كل ما هو غير ضروري أو غير نافع، بأنها غرفة عامة مثل أي غرفة في فندق، يدخن أو يقرأ إحدى الروايات البوليسية أو الروايات الأمريكية، ذات الأغلفة المبهرجة والملطخة بآثار الأصابع، التي تركها المدير السابق وراءه في البيت، على شكل إرث، من أجل ليالي الوحدة. كما أنه يشغل الفونوغراف في بعض الأحيان، كنت أشعر حينذاك، وإن

t.me/qurssan

بوعي غير كامل، أنه ليس هناك شيء في العالم أكثر حزنًا من موسيقى «المارش» وموسيقى «الفالس» في برودة ذلك البيت الذي لم يعد بيتًا.

في الأوقات التي لم أكن فيها أنا و«أوروخ» عند «خيرارد» في الجناح الخاص به، كنا نجلس إلى الطاولة في الشرفة الخلفية بكتب الحساب واللغة. يحدث أحيانًا أن يتوقف أبي عندنا، يأخذ دفاترنا، وينظر فيها، ويسألنا عما نحرزه من تقدم في المدرسة. كان يمعن النظر في التقارير المدرسية، التي آتي بها أنا و«أوروخ» كل ثلاثة شهور إلى البيت، قبل أن يضع توقيعه عليها، ولأننا لم نكن نرسب في المواد قَطُّ، لم يجد أي سبب لإبداء ملاحظات أو تعليقات. كان خط «أوروخ» في غاية الجمال، يكتب الحروف مثل الأمثلة التي يعطوننا إياها في المدرسة، في تناسق كامل في الحجم والشكل، السبب الذي جعل أبي يسأل «أوروخ» ذات مرة، عما إذا كان قد فكر بمستقبله، ثم أضاف وهو يتصفح دفتره مرة أخرى:

ـ بوسعك أن تتوظف في مكتب.

أغمض «أوروخ» عينيه نصف إغماضة، وحدق بنظرة جانبية إلى الأرض وهو يبتسم، الأمر الذي يفعله في أغلب الأحيان، عندما يخجل من إعطاء الجواب.

t.me/qurssan

قلت سريعًا:

ـ أنا و«أوروخ» نريد أن نصبح سائقي قطار، أو طيارين، ولكن الأفضل من ذلك أن نكون من الرحَّالة. هذا ما اتفقنا عليه.

أعاد أبي الدفتر إلى الطاولة، ورفع كتفيه بطريقة لا تكاد تلاحظ. على الأرجح لم تكن تلك المرة الأولى التي يرى فيها أنه لا يمكنه أن يتحدث معنا، مثلما يتحدث مع أشخاص بالغين. كان التعامل مع الأطفال من الأمور الغريبة على والدي. هكذا، كنا نعيش بعضنا إلى جوار بعض، مثل أناسٍ يتكلمون لغات مختلفة.

مع ذلك، أعلم أن أبي كان ينشغل بمشكلات تربيتي. قبل بضعة أيام من عيد ميلادي الحادي عشر، جاء إلى غرفتي، عندما كنت أوشك على الذهاب إلى النوم. بقي ينظر إليَّ، وأنا أعلق ملابسي على كرسي، وأنظف أسناني بالفرشاة. تذكرت زيارة أمي إلى غرفتي قبل سنوات عديدة، عندما جاءت بهذه الطريقة، وأخبرتني بأنني يجب أن أذهب إلى المدرسة.

بدأ أبي الكلام:

ـ تستطيع أن تكتب قائمة بالهدايا التي تريدها.

t.me/qurssan

أومأت بنعم. كنت قد نويت أن أطلب منه بندقيتين، واحدة لي وأخرى لـ«أوروخ»، لنأخذهما معنا في رحلات الصيد، لكن راودني الشك في أن يرى أبي ضرورة لإهدائي هكذا هدية.

تابع أبي:

ـ بعد بضعة أشهر سأحصل على إجازة. أريد أن أسافر، أن أرى بعض الأماكن في العالم، الآن وأنا في وضع أستطيع معه فعل ذلك. تستطيع أن تفهم أنني لا أستطيع أن آخذك معي. فكرت أن أرسلك إلى هولندا، إلى مدرسة داخلية أو شيء من هذا القبيل. في نهاية هذا الفصل الدراسي، يجب أن تقدم امتحان قبول، وتذهب على أي حال إلى المدرسة الثانوية الخاصة. والحياة هنا...

أشار بيده إلى المكان حوله:

ـ أنت تفتقد الكثير من الأشياء، بهذه الطريقة. أنت تصبح واحدًا من أهل البلد. هذا شيء يزعجني.

تسمرت قرب المغسلة وقلت بحزم:

ـ لا أريد الذهاب إلى هولندا.

جالت حكايات «خيرارد» في رأسي بسرعة البرق: المطر، البرد، الغرف الخانقة، شوارع المدن المملة. قلت مرة أخرى:

t.me/qurssan

ـ أريد أن أبقى هنا، و«أوروخ»...

قاطعني أبي بحركة تنم عن نفاد صبر:

ـ «أوروخ»، «أوروخ»، دائمًا «أوروخ». سيأتي يوم وتعيش من دون «أوروخ». هذه الصداقة طالت أكثر من اللازم. ألا تستطيع أن تجد أصدقاء لك في الصف؟ ادع بضعة منهم إلى عيد ميلادك. أستطيع أن أرسل السيارة لتأتي بهم وتعيدهم إلى البيت.

أضاف عندما رأى وجهي:

ـ أتفهَّمُ أنك متعلق بـ«أوروخ». ما فعلته كان أمرًا لا مفر منه. كان عليَّ أن أفعل شيئًا للصبي. لكن «أوروخ» يجب أن يعمل، عندما ينتهي من المدرسة الابتدائية، أما أنت فيجب أن تكمل تعليمك. كما أنك...

تردد قبل أن يضيف:

ـ ... يجب أن تفهم يا بني. أنت أوروبي.

فكرت بما قال، لكنني لم أستطع أن أستوعب أهمية الحقيقة الأخيرة هذه، حقيقة أنني أوروبي. تحت ضغط أبي، دعوت اثنين من رفاقي في الصف لقضاء يوم الأحد، الذي أعقب عيد ميلادي، في المزرعة. لم يهدِني أبي بندقيتين، بل ألبوم طوابع وعلبة دهان.

t.me/qurssan

أعطيت الأخيرة لـ«أوروخ» في الخفاء، وعلى الفور تقريبًا. أهداني «خيرارد» جلد سنجاب طائر، مدبوغًا بشكل كامل، لأعلقه على الحائط. كما أنه زين الشرفة الخلفية بمصابيح وزينة من الورق الملون، الأمر الذي أضفى لمسة احتفالية على حفلة عيد الميلاد التي أقمتها قسرًا إلى حدٍّ ما. الصبيان الغريبان، اللذان لم تكن تربطني بهما في المدرسة سوى علاقات عابرة، لا تزيد عن عرض المهارات، والتباهي المتبادل في فترات الاستراحة، تأملا غرفتي وأمتعتي، وجلسا معي ومع أبي إلى «وجبة الأرز» التي أُعدَّت بشيء من السخاء من أجل هذه المناسبة. شعرت بالغضب وخيبة الأمل، لأن «أوروخ» لم يكن مدعوًّا إلى هذه الوجبة، لا سيما أنني كنت قد تحدثت معه عنها، كما لو أنه من البديهي أن يشاركنا فيها هو أيضًا. لاح على «أوروخ» أنه لا يهتم كثيرًا للأمر. بينما نتناول الطعام، رأيته ينظر إلينا من الحديقة. بعد الطعام اصطحبنا أبي، أنا وضيفيَّ، إلى المصنع، وقدم لنا شرحًا مفيدًا عما رأيناه هناك.

أُرسلنا إلى الحديقة لنقضي فيها باقي النهار بالتسلية واللعب. انضم «أوروخ» إلينا. في أثناء هذا اللعب المشترك، أدركت للمرة الأولى في حياتي أن «أوروخ» هو

t.me/qurssan

«شخص من أهل البلد» في نظر الآخرين؛ ليس شخصًا من أهل البلد مثل «هارسونو كوسوما سودجانا» ابن الحاكم الذي كان معنا في الصف، بل هو صبي قروي، ابن مرؤوس في المزرعة. أحسست بهذا الاختلاف من نبرة الأمر الخفيفة التي استعملها ضيفاي مع «أوروخ»، نبرة الإجبار - «هيا!» - التي استعملاها لحثه على الاستعجال في اللعب. ولكن ما احمرَّ له لوني من الانزعاج، لم يكد يمس «أوروخ». فقط مرة واحدة، رأيت نظرته الجانبية، الموجهة إلى داخل كيانه إذا صح التعبير، وتشنجًا طفيفًا على وجهه وهيئته، عندما وجه واحد منهما شتيمة سوندية لـ«أوروخ»، على الأرجح بدافع الطيش، أكثر منه بدافع الخبث.

بعد هذه الحادثة، انسحب «أوروخ» تدريجيًّا؛ قضى ما تبقى من النهار بالجلوس على درابزين الشرفة الخلفية، والنظر إلينا من هناك. في المساء، بعد أن أوصلت رفيقيَّ إلى بيتيهما، ورجعت أدراجي، لم أجده في أي مكان. كانت تلك أول مرة لم أعرف فيها أين كان أو ماذا يفعل. ذهبت إلى «خيرارد»، فرأيته جالسًا بساقيه الطويلتين على الطاولة في شرفة بيته الأمامية، يدخن غليونه. جلست على كرسي. مضى وقت طويل

t.me/qurssan

على هذا النحو، من دون أن يتفوه أحد منا ببنت شفة. كان «خيرارد» يبلغ من اللباقة أنه ينتظر بصمت، عندما يظن أن الأسرار في طريقها إلى الظهور. أخيرًا، كشفت له النقاب عما يؤلمني، فسألت:

ـ هل «أوروخ» أقل شأنًا منا؟ هل هو مختلف عنا؟

قال «خيرارد» بهدوء، من دون أن يأخذ غليونه عن فمه:

ـ هل خدعوك؟ من قال ذلك؟

صغت ما لاحظته في ظهر ذلك اليوم في كلمات لم تخرج بسهولة.

قال «خيرارد» بعد انقضاء بعض من الوقت:

ـ الفهد مختلف عن القرد، ولكن هل أحدهما أقل أهمية من الآخر؟ لا بد أنك تراه سؤالًا أحمق. إنك على حق. ابقَ على رأيك هذا، إذا تعلق الأمر بالبشر أيضًا. الاختلاف شيء طبيعي. كل شخص مختلف عن الآخرين. أنا أيضًا مختلف عنك. ولكن أن تكون أقل أو أكثر شأنًا بسبب لون بشرتك أو مكانة أبيك، فهذا هراء. هل «أوروخ» صديقك حقًّا؟ إذا كان كذلك، إذا كان صديقك، فكيف يمكن أن يكون أقل شأنًا منك أو من أي شخص آخر؟

وأنا عائد إلى البيت في الظلام، سمعت صوت «أوروخ»

t.me/qurssan

يتناهى من الخلف، من عند غرف الخدم. كان خادم البيت، والبستاني «دانو»، و«أوروخ»، جالسين أحدهم إلى جانب الآخر فوق جدار البئر المنخفض، يتحدثون عن ديك اشتراه «دانو» في اليوم السابق. هممت بالذهاب إليهم، لكنني غيرت رأيي. جئت بعلبة الدهان الجديدة الخاصة بي من الشرفة الخلفية، وذهبت بها إلى الغرفة الصغيرة بجانب المطبخ، حيث ينام «أوروخ». كانت ناموسية متراخية تتدلى من سلك حديدي فوق السرير. وُضعت دفاتر «أوروخ» وكتبه المدرسية بعضها فوق بعض بعناية على صندوق مقلوب. أُلصقت صور الطائرات وسيارات السباق المقصوصة من المجلات على الجدار المدهون بالكلس. كنت أعرف أنه فخور جدًّا بغرفته الصغيرة الخاوية المرتبة، التي لا تبقى في منأى كامل عن روائح المطبخ النفاذة، وتنبعث من أرضيتها الأسمنتية برودة رطبة، ولا سيما في الليل. وضعت علبة الدهان على السرير، إلى جانب بيجامة قديمة من بيجاماتي التي وصلت إلى «أوروخ» عن طريق «البابو»، مثل معظم ملابسي القديمة.

* * *

قرر أبي أن أبقى في الهند الشرقية حتى وقت امتحان

t.me/qurssan

قبولي في المدرسة على أي حال. لأن وكيله كان سيقيم في منزل المديرين، بحث لي أبي عن دار في «سوكابومي» للسكن فيها. لم أكن على علم بهذا الأمر كله. وضعني أبي أمام الأمر الواقع، عندما اصطحبني في السيارة إلى «سوكابومي» ذات يوم، وأوصلني إليها، إلى المرأة التي سأناديها طوال حياتي بـ«ليدا». كانت «ليدا» تبلغ من العمر ما يصعب تحديده. أقدر أنها كانت بين الثلاثين والأربعين في الوقت الذي أتحدث عنه. واحدة من أولئك النسوة اللاتي لا يتغير مظهرهن، من سن البلوغ حتى عمر متقدم من الشيخوخة. متوسطة الطول، نحيفة القامة إلى حد ما، لها شعر قصير أشقر فاتح، بغرة مسترسلة على جبينها، وعينان رماديتان في وجه غير متناسق لا يسترعي الانتباه. جاءت من هولندا قبل بضع سنوات، وفي نيتها، باعتبارها ممرضة، إنشاء دار للنقاهة في جو «سوكابومي» الجبلي المنعش. صديقتها وزميلتها، التي كان من المزمع أن تساعدها في إنجاز هذا المشروع، تزوجت على نحو مفاجئ ولم يكن قد مضى شهران على وصولها إلى المنطقة الاستوائية. نتيجة هذا الأمر، فقدت «ليدا» يدًا عاملة ورأس مال على حد سواء. كما أن الفنادق الكبيرة والصغيرة التي أخذت تنبثق من كل مكان في «سوكابومي» مثلما ينبثق الفطر من الأرض،

t.me/qurssan

لم تترك لها أي مجال للمنافسة. لم يبقَ من المشروع الكبير في نهاية الأمر سوى منزل صغير يتسع لبضعة أشخاص فقط. لم يكن بوسع «ليدا» أن تنتقي زبائنها، فهي لم تكن تستضيف المحتاجين إلى النقاهة فحسب، وإنما السياح أيضًا، والنزلاء الذين يريدون البقاء بضعة أيام، وحتى الذين يريدون تناول الطعام فقط. كان لها صيت بأنها خدوم وتقدم إقامة بسعر زهيد؛ صاحبة فندق لينة العريكة. كان مدير مدرستي، الذي يعرفها، قد رشحها لأبي لتقوم على رعايتي بشكل مؤقت في أثناء إجازته. لم يكن بيت «ليدا» «جاويًّا» على الإطلاق. كان مثل أي بيت من بيوت «فيلوا» أو «لارن» أو «بلاريكوم» في هولندا، بنباتات معترشة على الواجهة والسطح، وغرفة زجاجية إضافية، وحديقة ملأى بالورد. كانت الوسائد، والمفارش، وأغطية أباريق الشاي، والسجاجيد المنسوجة يدويًّا تزين البيت، الذي بدا أنه صُمم لأن يكون فيه موقد مشتعل. أخذت أنظر باندهاش إلى الجدران المكسوة بالخشب، والغرف المليئة بالأغراض، والستائر الشفافة والسميكة المسدلة على النوافذ. كانت «ليدا» قد تهيأت لزيارتنا، صبت لنا الشاي، ودخلت في الموضوع مباشرة من دون لف ودوران. بدا واضحًا أن أبي قد التقى بها في وقت سابق، وأن إقامتي عندها قد أصبحت أمرًا مفروغًا

t.me/qurssan

منه. سمعت أنني سأنتقل في القريب العاجل للسكن عندها. أذهلني أسلوب حديث «ليدا» الحاسم، ومفاجأة الأمر، إلى درجة أنني افتقدت الرغبة في البداية في إسماع صوتي، ولم أُمنح الفرصة لذلك على كل حال.

قلت في نهاية الأمر، عندما توقف الحديث برهة:

ـ لكن... «أوروخ»؟ ماذا سيحدث لـ«أوروخ»، إذا سكنت هنا؟

نظرت إليَّ «ليدا» بعينيها المتسمتين باللطف وبشيء من قصر النظر، وسألت:

ـ مَن «أوروخ»؟

وعندما أراد أبي أن يجيب بنفاد صبر، تابعت سريعًا:

ـ لا. أخبرني أنت بنفسك. دعه يخبرني بنفسه.

تعثرت بكلماتي. أخشى أنني أخبرتها قصة مشوَّشة، ولكن كيف لي أن أشرح لها بكلمات قليلة من يكون «أوروخ» وماذا يعني لي؟ كان «أوروخ» صديقي، الإنسان الوحيد الذي عشت معه منذ ولادتي تقريبًا، الذي شاركته كل مرحلة من مراحل حياتي، وكل فكرة، وكل حدث. وليس هذا فحسب، كان «أوروخ» أكثر من هذا، «أوروخ» يعني ـ مع أنني لم أستطع أن أعبر عن ذلك بالكلمات

t.me/qurssan

في ذلك الوقت ـ الحياة في «كيبون دجاتي» وما حولها، الرحلات الجبلية، اللعب في الحقول وعلى صخور النهر، السفر بالقطار، الذهاب إلى المدرسة، ألف باء حياتي في الطفولة.

شرح لي أبي باختصار أن «أوروخ» سيبقى في المزرعة، ثم قال:

ـ يستطيع أن يذهب إلى المحطة سيرًا على الأقدام، إنها لا تبلغ ذلك المبلغ من البعد، وإذا اعترضته مشكلة، نستطيع إيجاد حل مناسب لها. لذلك لا داعي للقلق.

بدأ الشك يراودني، وليس عن غير حق، بأن أبي يعتبر إقامتي عند «ليدا» وسيلة يفطمني بها عن مصاحبة «أوروخ». امتلأت مرارة وسخطًا من هذه الطريقة الجائرة في التعامل، وبقيت أتجنب أبي قدر المستطاع، خلال الأسابيع الأخيرة من إقامتي في المزرعة.

* * *

غيابي المتكرر والمنتظم عن المدرسة، الذي دفع المدير إلى التشكي عند «ليدا» في آخر الأمر، جعلها تفكر باستضافة الشخص المذنب، «أوروخ»، في بيتها. كنت أنا و«أوروخ» حينذاك في الثانية عشرة، في ذلك العمر الذي

t.me/qurssan

يؤدي فيه أي اعتراض غير لبق على تحقيق الرغبات إلى مقاومة عنيدة وشرسة، وخفية في أغلب الأحيان. كنا نغيب ساعات طويلة عن المدرسة، في البداية من أجل أن نتسكع معًا في الطرقات، ونتحدث عن أحداث حياتنا الجديدة، ولكن بعد ذلك، عندما اعتدنا على الوضع الجديد المختلف، من أجل أن نمارس أعمال الشغب، سواء مع مجموعات من الشباب من أهل البلد أو من دونهم، في البازار، أو في الشوارع القريبة من السوق. كان «أوروخ» أنضج مني من نواحٍ عديدة في ذلك الوقت، مثلما فهمت لاحقًا، وبدا أنه لم يذهل، أو لم يذهل كثيرًا، من الطريقة التي عرَّفنا بها رفاقنا في مغامرات التسكع إلى مظاهر الحياة التي لم نحتك بها من قبل. كان هناك «جوليس»، صبي خلاسي في نحو الخامسة عشرة من العمر، بوجه شوَّهه الجدري، ابن عاهرة يتردد عليها العاملون في المزارع القريبة. تقيم في مسكن صغير في شارع قذر صاخب، أقرب إلى حارة ضيقة على أحد أطراف «كامبونج». في إحدى المرات، أخذنا «جوليس» معه إلى البيت، كي نتناول «الكيتان»، حلوى من حليب وجوز هند مبشور وسكر بني. كانت أمه، التي طلبت منا أن نسميها «سونيا»، جالسة في مدخل شرفتها الخلفية الصغيرة، بروب منزلي قذر زهري اللون، وقدمين حافيتين. كان الفناء الصغير

t.me/qurssan

مليئًا بالأوساخ والزجاج المكسور. أرانا «جوليس» من دون خجل غرفة النوم غير المرتبة، الملأى بزينة رخيصة وورد ورقي. لم يكتم في أحاديثه الأمور الغريبة المتعلقة بحياة أمه. حاولت ألا أظهر ارتباكي اقتداءً بـ«أوروخ»، لكنني لم أوفق في ذلك كثيرًا. كان عليَّ أن أنفِّس بطريقة أو بأخرى عن مشاعري المضطربة بعد أن عرفت هذه الأشياء الجديدة، وحققت ذلك عن طريق سلوك متمرد في المدرسة ومزاج متقلب في بيت «ليدا».

كان «آدي» أكثر بؤسًا من «جوليس»، وهو صبي رشيق من أهل البلد، يرتكب سرقات صغيرة من دكاكين وسط المدينة بثقة لص محترف. كان السبب في أن يحل المطاف بنا في دار سينما، لأول مرة في حياتنا، صالة بسيطة تعج بالمقاعد الخشبية، لا تُعرض فيها سوى أفلام الجريمة وأفلام الكاوبوي الصامتة التي عفا الزمن عليها. أثرت أحداثها العنيفة المتعاقبة من السطو والقتل والجريمة تأثيرًا كبيرًا فينا. أغوتنا هذه الأفلام إلى درجة أننا سمحنا لأنفسنا باللجوء إلى أي وسيلةٍ مهما كانت لحضورها والاستمتاع بها.

في هذا الوقت بالذات، تدخلت «ليدا»، مع أنها لم تكن على اطلاع بحقيقة ما يحدث.

t.me/qurssan

كانت «ليدا» امرأة لا تعرف اللف والدوران، لها عقلية سميتها أنا و«أوروخ» في سنوات لاحقة «عقلية الصابون الأخضر»؛ لم تكن لديها قدرة على التخيل، ولا على تفهم أو حتى تصديق الأشياء التي لا تستطيع أن تتصور أنها موجودة، سذاجتها المتأصلة جعلتها ضحية المرة تلو المرة، كانت برجوازية من دون أن تكون تافهة، تسعى إلى الخير بالمعنى المسيحي من دون أن تكون متعصبة. تقيِّم الناس كلهم والأشياء كلها بمعايير روحها النقية، غير العملية، العاجزة تمامًا عن التصور. ما أضفى جاذبية على هذه الصفات كلها هو أنها لم تكن تضمر أحكامًا سابقة وأنها صادقة إلى أبعد الحدود. من البديهي إذن أن تكون قليلة الحظ في التعامل مع سكان البلد، خاصة مع الخدم والتجار الذين يزودونها بالمواد التموينية. كان توقها إلى الإخلاص، وميلها إلى حل الصراعات والنزاعات بالصبر والحجج المنطقية، يثيران الدهشة والارتياب. كانت ممارسة السلطة من أجل الحفاظ على هيبتها من الصفات الغريبة عليها. تتعرض للسرقة والغش، حتى من العاملين الذين يريدون لها الخير، ليس لسبب إلا لعدم فهم أحد الطرفين للطرف الآخر. أدرك كل الذين تعاقبوا على العمل في خدمتها هذا الشيء، إلا «ليدا». منذ اللحظة الأولى التي تعرَّفت فيها على «أوروخ»، أنزلته من نفسها

t.me/qurssan

منزلة استثنائية. لعل وحدته استثارت غريزة الأمومة لديها، أو لعله أشبع رغبتها، وإن كان من دون وعي منها، في أن تخوض تجربة غريبة، شكلت بلا شك الدافع الرئيسي في سفرها إلى الهند الشرقية، ولم تستطع تحقيقها في ظروف عملها الجديد ولا حياتها الجديدة. من الممكن أيضًا أن «أوروخ» وهو في بداية تطوره من صبي قروي إلى شاب متعلم ذكَّرها بفترة شبابها الصعبة، وبالطريقة التي انتزعت بها نفسها من بيئتها الجاهلة، ضيقة الأفق. كانت نحافة «أوروخ» متناسقة متجانسة العضلات، على عكس أطرافي المكتنزة التي لم يكن قد اكتمل نموها بعد. كانت لي تلك البدانة التي تتحول عادة إلى طول عند البلوغ، وتبين أن هذا ما حدث فعلًا. كانت قامة «أوروخ» الممشوقة، وعيناه الكبيرتان حيث تطوف الحدقتان على البياض المائل إلى الزرقة، مثل بقعتين متلألئتين من الحبر، والمؤطرتان بخطوط واضحة مثل عيون دمى «الوايانج»[1]، وفمه العريض لكن جميل الشكل، وسلوكه الذي يمتزج فيه الخجل والتحفظ الساخر، كل ذلك كان يثير إعجاب «ليدا». في البداية، كان «أوروخ» يزورنا في أثناء النهار، ثم أصبح يقضي الليل عندنا، ثم انتقل بعد مضي بضعة شهور

(١) مسرح العرائس. (المترجمة).

t.me/qurssan

للعيش بشكل دائم في الفندق. الحق كانت ثمة أسباب وجيهة تبرر هذه الخطوة. أعادت زوجة المدير الذي حل محل والدي ترتيب العاملين في «كيبون دجاتي»: اعتبرت «أوروخ» مجرد قريب لخادم البيت، فجردته من غرفته المجاورة للمطبخ. صار ينام مع «دانو» في غرفته، خلف الإسطبلات القديمة. أصبحت ملابسه، التي كانت ملابسي فيما مضى، وسخة ورثة، وشعره غير مقصوص منذ فترة طويلة. كان يعطي انطباعًا بأنه مهمَل يفتقر إلى العناية.

وضحت «ليدا» السبب الذي جعلها تقرر إسكان «أوروخ» في بيتها فقالت:

ـ إذا كان أبوك يدفع تكاليف مدرسة الصبي، يجب عليَّ أن أعتني به.

جيء بسرير إلى غرفة نومي، ووضع كرسي إضافي إلى جانب الطاولة. كان نزلاء الفندق القلائل في ذلك الوقت يتناولون طعامهم في غرفهم. هكذا دخل «أوروخ» عالمي من جديد، هذه المرة من دون اعتراض أحد، وبصفته رفيقي في اللعب وفي البيت أيضًا.

كنت أعرف أن «ليدا» تراسل أبي، فاستطعت أن أخمن أنها كتبت له في رسائلها عن إقامة «أوروخ» عندنا وعن

t.me/qurssan

مستقبله. كنا نسمع مقتطفات من تلك المراسلات بين الحين والآخر. تبين من المعلومات التي حصلت عليها «ليدا» من المدرسة «الهولندية-المحلية» أن «أوروخ» يُعدُّ من الطلاب الأذكياء. كان حاضر البديهة، ويحرص على الالتزام بواجباته المدرسية، حتى في أثناء نوبات الاضطراب التي تنتابه بين الحين والآخر. علم مدير المدرسة بنيَّة أبي في منح «أوروخ» أعمالًا كتابية أو إدارية بسيطة في مكتب المزرعة، بعد انتهائه من المرحلة الابتدائية التي يستغرق التعليم فيها سبع سنوات، لكنه رأى أن هناك أشياء أفضل تناسب شابًا بقدرات «أوروخ» وإمكانياته، فنصحه بالالتحاق بالمدرسة الإعدادية، أو بالمدرسة المتوسطة العامة، أو بأي مدرسة متوسطة من هذا القبيل.

سُرَّت «ليدا» لسماع هذا الخبر، وكتبت رسالة مطولة إلى أبي، لكن أبي لم يبدِ أي حماسة. رأى أن تكاليف الدراسة باهظة جدًا مقارنة مع النتيجة المتوقعة، إذ إن إمكانيات العمل بالنسبة إلى «أوروخ» محدودة في آخر الأمر. خلال ساعات الظهر والمساء، التي كانت «ليدا» تجلس فيها بأشغال الخياطة عندنا، بينما نعكف على واجباتنا المدرسية، عششت فكرة في رأسها لم يعد

t.me/qurssan

بوسعها التخلص منها. لا أزال أراها وهي جالسة في تلك الوضعية وهي ترفع نظارتها، الخاصة بالخياطة، أمام عينيها بين الحين والآخر. كنت أنا و«أوروخ»، مع أننا نحبُّها ونودُّها كثيرًا، يبتسم أحدنا للآخر ابتسامة ذات معانٍ كثيرة من طريقة جلوسها اللامبالية في الكرسي الخيزراني المنخفض، بحيث تظهر حمالتا جوربها زهري اللون، المشدودتان حول فخذيها. على العموم، تلبس فساتين من دون هيئة محددة، ذات أكمام منتفخة، منسوجة من قماش مزهَّر رخيص يُعرض عادة للبيع بكميات لامتناهية في البازارات. لم نكن نعرف ما الذي يجول في خاطر «ليدا» وهي تخيط الأزرار على قمصاننا وتصلح بناطيلنا؛ لم نعرف كيف نضجت الخطة في ساعات السكون تلك، التي إن أُنجزت يمكنها أن تعوضها عن فشلها في إنجاز مشروع دار النقاهة. قررت مساعدة «أوروخ» في إحراز التقدم، في إتاحة الإمكانيات له لتطوير نفسه. منذ اللحظة التي وضعت فيها هذه الفكرة في رأسها، باشرت العمل على تطبيقها بشكل ممنهج. كنا نتحدث دائمًا بالهولندية بحضور «ليدا»، بسبب عدم إلمامها بالملايوية والسوندية. كان «أوروخ» قد تغلب على خجله السابق إلى حدٍّ ما، مع أنه لا يزال يفضِّل الاستماع على الحديث. بدأت «ليدا» تدرِّبه بشكل فعال، بهدف تحسين نطقه للكلمات.

t.me/qurssan

لم يمضِ يوم واحد إلا وأسهبت في الحديث عن أهمية الطب، وعن الحاجة الملحة إلى الكادر الطبي في المنطقة الاستوائية بالذات، من أجل خدمة الشعب. أخذت تعرض الحقائق والأرقام المتعلقة بالأوبئة، وتأتي بالكتب والمنشورات، وتطلب منا، ولا سيما من «أوروخ»، أن نقرأها. تبحث في المواد التعليمية التي كانت تتلقاها هي نفسها في معهد التمريض، وتعرض على أعيننا صور الأعضاء الداخلية للإنسان، وبنية تلك الأعضاء، ومواضع الأوعية الدموية والعضلات. في البداية، كنا ننظر إلى هذه الأشياء كلها بدافع الأدب أكثر منه بدافع الاهتمام. لذلك أذهلني «أوروخ»، عندما سألته «ليدا» في آخر الأمر عما إذا كان يريد أن يصبح طبيبًا، فأجاب:

ـ ربما.

وأعقب إجابته في اللحظة نفسها تقريبًا بـ:

ـ نعم.

في المساء، عندما كنا في غرفتنا، عاتبتُ «أوروخ» على أنه تخلى عن حلمنا في أن نصبح طيارين، فقال:

ـ وماذا يهم؟

ناطقًا «الهاء» مثلما ينطق «الخاء»، ثم تابع:

t.me/qurssan

ـ إذا كان هذا ما تريده هي، فلِمَ لا؟

سألته:

ـ ما رأيك في «ليدا»؟

كانت تلك أول مرة يخطر في بالي أن أتساءل عن المشاعر التي نكنها للمرأة التي تشملنا برعايتها. نظر إليَّ «أوروخ» بنظرته الداكنة الجانبية قبل أن يجيب أخيرًا:

ـ ليست سيئة.

ثم رسم ملامح السخرية على وجهه، وقلّد «ليدا» وهي تساوم «الكلونتونج»[1] على الأسعار، فما كان منا إلا أن انقلبنا على أسِرَّتنا ونحن نقهقه بأعلى صوتنا، إلى أن طرق النزلاء المقيمون في الغرفة المجاورة على الحائط، وهرعت «ليدا» إلينا تطلب منا الحفاظ على الهدوء.

تزامن امتحان قبولي في المدرسة مع عودة أبي تقريبًا. لم أكن قد رأيته منذ أكثر من سنة. كان قد سمن كثيرًا، وسُفع بالشمس، ما أضفى عليه لأول مرة، وهو في بدلته الأمريكية اللائقة به، المظهر التقليدي للسيد الذي يدير مزرعة. اندهشت من مرحه الصاحب وسخائه في توزيع الهدايا علينا، ولكن ما أدهشني أكثر هو أنه جاء ومعه زوجة

(١) بائع متجول صيني.

t.me/qurssan

جديدة، الأمر الذي لم يتطرق إليه في رسائله قَطُّ. كان قد تزوجها في سنغافورة، وبقيت بعد عودتهما في باتافيا للتسوق. امتنعت «ليدا» عن إبداء أي ملاحظة، لكن لاح عليها أنها لم تكن راضية عن سلوك أبي. انتقل «أوروخ» من وصاية إلى أخرى، من دون أي نوع من الإجراءات الرسمية، أما بالنسبة إليَّ فقد اتُّخذ القرار بأن أقضي العطلة الصيفية في المزرعة. لم يعد أبي إلى الحديث عن ذهابي إلى هولندا، على الأرجح بسبب التكاليف. على الأقل هذا ما ظننته، عندما تعرَّفت إلى زوجته التي تبذر المال على أشياء غير ضرورية. كانت شابة نشيطة، واقعية وعملية، لها وجه جميل لكن جامد بعض الشيء. كرهتها منذ اللحظة الأولى بسبب الطريقة المتسلطة التي أعادت بها ترتيب الأوضاع في «كيبون دجاتي»، وبسبب عجرفتها، وسلوكها الاستبدادي تجاه المستخدَمين والعاملين على حد سواء. كانت قد أمضت بضع سنوات في خضوع وتبعية، بصفتها مربِّية أطفال ومعلمة مدرسة، وبدا أنها عازمة على تعويض الأضرار التي لحقت بها في تلك السنوات، بعد أن أصبحت زوجة المدير. كانت الآمر الناهي في البيت بلا منازع. كان أبي معجبًا بسلوكها وكفاءتها أشد الإعجاب، ومن الواضح مأخوذًا بنشاطها وحيويتها. على عكس أمي التي كانت تستيقظ في وقت

t.me/qurssan

متأخر، وقلما تستبدل ملابس أخرى بروبها المنزلي، كانت «أوخيني» تجلس مع أبي إلى مائدة الفطور في الصباح وهي بكامل زينتها، بينما شؤون البيت تجري على قدم وساق. كنت أهرب من الجو الجديد في البيت، كلما سنحت لي الفرصة. على العموم، أذهب إلى «أوروخ» في «سوكابومي»، وفي بعض الأحيان يلتقي أحدنا بالآخر خارج المزرعة، فنتجول في الحي، أو نذهب لقضاء اليوم في أحد حمامات السباحة في الجبال. كانت «ليدا» قد اشترت فندقًا في باتافيا، وتريد أن تنتقل هي و«أوروخ» للسكن فيه في سبتمبر. سيذهب «أوروخ» إلى المدرسة الإعدادية ويلتحق بعد انتهائه من الدراسة فيها بكلية الطب الهولندية-الجاوية في «سورابايا». كانت «ليدا» هي التي وضعت هذه الخطة بحذافيرها. ذهبنا أيضًا إلى «سيدريس» التي لم تجد سوى القليل لتقوله لابنها. نظرت إليه، بمزيج من الاندهاش والافتخار على وجهها الذابل، وهزت رأسها وهي لا تكاد تستوعب وضعه الجديد. كان بيتها قد فقد بمرور السنوات كل أثر من آثار الرفاهية الغربية. امتدت بضع سجاجيد قذرة على الشرفة الأمامية البسيطة للجلوس عليها، وتراكمت أكوام القمامة في الفناء، وامتلأ البيت كله برائحة السمك والجمبري المجفف. كانت «ساتيه»، التي سمنت كثيرًا من دون شك، جالسة في

t.me/qurssan

فتحة الباب المفضي إلى الغرفة الداخلية، وقد ارتدت «سارونجها» فوق قميص مشدود على جسمها، تضفر شعرها البراق وتربطه في عقدة. أخبرتنا أنها لا تنوي البقاء في القرية، وأنها تريد الانتقال إلى «المدينة» لتعمل «بابو». جلست أنا و«أوروخ» القرفصاء بين «سيدريس» وأولادها، بشيء من عدم الارتياح لأول مرة في حياتنا. أدركنا في تلك اللحظة أن السنة المتسمة بالترتيب والنظام التي قضيناها في بيت «ليدا» النظيف، زودتنا بتحفظ داخلي ضد القذارة والفقر الموجودين في القرية. بدا «أوروخ» مثل أمير بين إخوته وأخواته بملابسهم الرثة. بقينا لتناول وجبة الطعام معهم: أرز ونوع من أقراص مصنوعة من الجمبري المجفف المطحون. ودَّع «أوروخ» أسرته، ثم عدنا أدراجنا. كان حر النهار قد بلغ أوجه، فمشينا على مهل في الطريق المنحدر المليء بالحجارة. عبرت سماء الظهر الصافية سحبٌ كبيرة شبيهة بالزبد، رقيقة في جانبها السفلي، فبدت وكأنها تطوف على الزجاج. الخضار فوق المنحدرات الجبلية يتلألأ في الضوء الساطع. حولنا يسود السكون الباعث على الخمول، الذي يجعل البلد في ساعات القيظ مثل بلد ميت. لا يتناهى أي صوت سوى عواء كلب ورنين أجراس الجواميس الرتيب من مكان بعيد وراء الحقول. لم يكن ثمة أي إنسان على الطريق أو في

t.me/qurssan

حقول الأرز، ولم نرَ حتى مناديل حاصدات الشاي الملونة بين خضار الشجيرات في حقول الشاي الواقعة في الجبل. على جانبي الطريق، تتلألأ شجيرات «التامبلنج» بستارة من أزهار ملونة بكل تدرجات الزهري، والأحمر، والبرتقالي، يحوم فوقها سرب من الفراشات. اقترح «أوروخ» أن نسبح في النهر، الذي يختفي نصفه تحت شجيرات مائلة بعضها إلى بعض، ويجري في خرير جذاب فوق الصخور. ألقينا ملابسنا بعضها فوق بعض على الأرض الخضراء، ونزلنا إلى داخل المياه المنعشة، النقية نقاء البلور. لم تكن السباحة ممكنة في البرك الضحلة المتشكلة بين الصخور. أخذنا نرتمي في المياه مرة بعد مرة، ثم جلسنا بظهرَينا إلى شلالات المياه المزبدة الصغيرة، التي تتدفق من فوق الصخور المتدرجة إلى الأسفل. لقد أنعشنا أنفسنا بهذه الطريقة مئات المرات، خلال السنوات التي أمضيناها في «كيبون دجاتي». الاستسلام غير المشروط للمياه التي يتصاعد منها الخرير والزبد، القفز والهبوط الصاخب في برك ما بين الصخور، الألعاب اللانهائية المرتبطة بالسباحة والنهر، كانت من أكثر الأشياء التي فعلناها في طفولتنا. لاحظت أنا و«أوروخ» بشيء من الاندهاش والإحباط أننا لم نعد نستمتع بالاستحمام في النهر مثل السابق. لعلي أبالغ في التعبير، الأحرى

t.me/qurssan

أن أقول: كان الاستحمام في تلك اللحظة، وبقي هكذا في المستقبل أيضًا، ليس أكثر من غطس في المياه، في الواقع عمل ناتج عن حاجة ملحة إلى التبريد، فعندما أشبعنا هذه الرغبة، لم يعد لدينا سبب حقيقي للبقاء في المياه فترة أطول. على الرغم من أننا أدركنا هذا الأمر، فإننا بقينا نتراشق بالمياه بعض الوقت، بحكم العادة، أو ربما بحكم خجل أحدنا من الآخر، ولكن من دون أن نشعر بشيء من تلك السعادة التلقائية التي كنا نشعر بها في الماضي. ما اختلف هو أننا بدأنا نرى السباحة، والنهر، والتيار المتلألئ، بعيون أخرى، بعيون لم تعد تستطيع رؤية العالم الحقيقي على أنه عالم العجائب. لقد اختفى العالم السحري الذي كنا فيه من الأبطال والمغامرين. لم تعد الكهوف المظلمة أكثر من ظلال تلقيها أوراق الشجر الدانية على الضفة، ولم تعد مناطق الصيد على المنحدرات الصخرية والتيارات المتدفقة عليها سوى نهر جبلي ضيق، يجري في مساره المليء بالحصى والحجر. كانت السرطانات واليعاسيب المائية بتدرجات ألوانها الجذابة نفسها تعدو بسرعة تحت سطح المياه وفوقه، لكنها لم تعد تثير خيالنا كما اعتادت أن تفعل في السابق، ومع ذلك قمنا بمطاردتها بدافع الرغبة في التسلية. ونحن متمددان فوق صخرة مسطحة حتى ينشف جسمانا، فكرت

t.me/qurssan

ماذا يعني هذا التغيير عمليًّا. نظرت إلى «أوروخ» فرأيت في نظرة عينيه أنه هو أيضًا توصل إلى هذا الاكتشاف نفسه. لقد ولَّى شيء إلى غير رجعة. لم نعد أطفالًا.

حبلت «أوخيني» بولدها الأول. لسبب أو لآخر، استطعت أن أحصل على موافقة أبي بالذهاب إلى المدرسة الثانوية الخاصة[١] في باتافيا، من دون أن أبذل أي عناء. على النقيض من هذا، تولاني إحساس بأنه رأى في رحيلي حلًّا غير متوقع لمشكلة تقض مضجعه. لم تعد إقامتي عند «ليدا» ممكنة. ذهبت للعيش في بيت الطلاب التابع للمدرسة. رحلت إلى باتافيا قبل فترة قصيرة من بدء السنة الدراسية. كان «أوروخ» و«ليدا» قد انتقلا إلى هناك قبلي ببضعة أسابيع. لم أكن أعرف تلك المدينة، فبهرتني ساحاتها الكبيرة، ومبانيها البيضاء، وازدحام المرور فيها. كان بيت الطلاب التابع للمدرسة قائمًا في مسكن جاوي من الطراز القديم، بغرف مظلمة وأرضية مبلطة، وسط مساكن أخرى شبيهة بالقصور، على قطعة أرض احترقت الأعشاب فيها من جهة الشارع. كانت بضعة نباتات شمعية ضخمة، ذات أوراق جلدية شائكة، تنتصب مثل الحراس على كل من جانبي المدخلين. كان بيت الطلاب يديره

(١) مدرسة خاصة للأوروبيين. (المترجمة).

t.me/qurssan

معلم وزوجته المعلمة: الرجل يشرف على عمل الشباب، والمرأة تدير الأعمال المنزلية. بدا واضحًا أن كل ما يتعلق بفرش هذا البيت قد وُضع لخدمة النظام والغاية المرجوة. لم يكن هناك بذخ في الأثاث ولا في الزينة بأي حال من الأحوال. كانت غرف النوم، ذات الجدران البيضاء والأسقف العالية والأرضية العارية، تتسع لأربعة طلاب، ووفقًا لذلك تضم أربعة أسِرَّة، وأربع خِزانات، وأربعة كراسي، وأربعة مشاجب. الأسِرَّة بناموسياتها المنشَّاة المتدلية، مكعبات من الشاش المضاد للبعوض، تكتسب في هذا البيت مظهر الأقفاص أكثر من أي مكان آخر. النوافذ مسدودة بالقضبان للحماية من السرقة، كما قيل لي. تقاسمت الغرفة مع ثلاثة صبيان يكبرونني في السن، لم يكونوا يلاحظون وجودي، إلا إذا أرادوا استعارة أقلام رصاص مني أو شق صفحات من دفتري لاستعمالها أوراقًا مسَوَّدة. كان البرنامج اليومي بسيطًا. بعد الفطور، في الساعة السابعة، نذهب إلى الصف، عبر الفناء الخلفي المجاور لحديقة المدرسة. نعود في الواحدة بعد الظهر، حيث تكون وجبة الغداء جاهزة في الشرفة الخلفية. نجلس إلى ثلاث أو أربع طاولات طويلة، ونتناول طعامنا من دون أن نتحدث كثيرًا، الأمر الذي كان ممنوعًا أيضًا على نحو أقل أو أكثر. من الثانية حتى الثالثة والنصف يكون وقت

t.me/qurssan

الاستراحة، حيث يسود صمت مطبق وفقًا للنظام الداخلي. نقرأ أو ننام أو نعكف على واجباتنا المدرسية، هذه الأخيرة بهدف أن نُعفى من العمل تحت الإشراف في وقت أبكر في المساء، الأمر الذي كنا نكرهه كلنا من دون استثناء. عادة، يحدث هذا الشيء في الشرفة الداخلية، حيث تقوم المقاعد الدراسية والطاولات القديمة في صفوف مثل قاعات المدرسة. نذهب إلى هناك بعد شرب الشاي، لنشتغل على مواضيع البحث ومسائل الرياضيات إلى أن يحين وقت العشاء. الأشخاص الذين ينهون واجباتهم بعد تفقد جدولهم اليومي، لهم حرية الحركة حتى الساعة الثامنة. من البديهي ألا يثمر شيء إيجابي في هذا الجو المقفر. كانت العواطف المكبوتة تخرج بين الحين والآخر عن طريق هبات من العنف والكلام البذيء. لم تكن هناك صداقات فعلية تربط الشباب على العموم. تشكلت تجمعات دامت خلال كل فصل من الفصول الدراسية، لكن ليس أكثر من ذلك. لم أشعر بالانجذاب تجاه رفاقي في المسكن، ما عدا بعض الاستثناءات. كانت لي مساهمات في الحيَل والنميمة، لكن ما عدا ذلك لم يكن يهمني أي شيء.

في كثير من الأحيان، كنت عندما أنتهي من واجباتي،

t.me/qurssan

أذهب لزيارة «أوروخ» و«ليدا»، وأقضي معهما الجزء الأكبر من أيام الآحاد على كل حال. كان الفندق الذي تديره «ليدا» يقع في حي يفتقر إلى النظام والترتيب، شهد «وضعه» تراجعًا كبيرًا خلال السنوات العشر الأخيرة. كانت البيوت، التي تسكنها العائلات الصينية والعائلات الأوروآسيوية، تعطي انطباعًا بأنها مهمَلة. الدكاكين المحلية الصغيرة والأكشاك الثابتة لبيع المأكولات تقوم بين المساكن الأكبر حجمًا، وتبدو وكأنها دفعت «الكامبونج»، الواقع في الخلف بمحاذاة الحدائق، صوب الشارع الرئيسي. يبدو أن «ليدا»، التي لم تكن ترى هذه الأشياء، قد لفت الحبل حول عنقها بيديها، عندما استبدلت هذا الفندق بفندقها القديم. صحيح أن حديقتها مرتبة إلى حد معقول، وشرفتها الأمامية مدهونة بطبقة جديدة من الدهان الأبيض، إلا إن موقع الفندق لم يكن في صالحها. حتى اللوحة المعلقة بافتخار بجانب البوابة، المكتوب عليها «فندق آود-بوسوم»، لم تكن تشكل في هذا المحيط دعاية لفندقها. كان النزلاء يُعَدون على أصابع اليد: شابان أعزبان يعملان في مكتب وسط المدينة، قلما نصادفهما في الفندق، ما عدا وقت العشاء، وزوجان كهلان عرفا أيامًا أفضل من هذه الأيام في «زمن السكَّر»، ولكن منذ بداية الأزمة يعيشان في فقر لا يمكن إخفاؤه، بالإضافة

t.me/qurssan

إلى فتاتين لم تكن أخلاقهما تثير الريبة لدى «ليدا»، لكنها تثير ريبتي أنا و«أوروخ» كثيرًا. كان يساعدها خادم وقح وثلاث خادمات صفيقات بعض الشيء، في خدمة النزلاء المقيمين في غرف مفروشة بأثاث متماثل، تطل كل منها على شرفة أمامية فيها مقعد صغير. لم تكن حرارة الطقس ولا مشاغل الحياة في باتافيا من الأمور السهلة على «ليدا». أصبحت أقل عناية بنفسها وأقل ابتهاجًا مما كانت عليه في «سوكابومي»، ولم يعد لديها متسع من الوقت لتقضيه معنا.

كانت عادة ما تجلس في مكتبها، حجرة صغيرة خانقة في أحد المباني الملحقة بالفندق، وأمامها أكداس من الفواتير. غرة شعرها ملتصقة بجبينها المبلل بالعرق، وفستانها المزهَّر متسخ عند الياقة. كنت إذا ما ذهبت لزيارة «أوروخ» بعد الظهر، رحبت بي شاردة الذهن بعض الشيء، وأرسلتنا إلى المطبخ كي نطلب ليمونادة أو شايًا. لم تبخل على «أوروخ» بالتكاليف ولا بالجهد. لم يكن مظهره تشوبه شائبة، في قميص أبيض وحذاء من القماش. لم يعد يلبس قبعته. عندما سألته عنها، ندت عنه إيماءة تنم عن نفاد صبر، وطقطق بلسانه، ثم قال موضحًا: «أنا لست مسلمًا». وافقته في الرأي على أنه لم يكن يمارس طقوس

t.me/qurssan

دينه كثيرًا، وإن كان يذهب مع خادم بيتنا إلى المسجد في «كيبون دجاتي».

بدا لي، بتخليه عن قبعته، أنه فقد سمة خاصة من سماته. أفقدته الملابس الأوروبية، وقصة شعره الغزير الحديثة، الاحتشام إلى حد معين، ذلك التحفظ الخاص بأهل البلد، الذي بدا لي على الدوام أنه جزء من شخصيته. لقد حالفه التوفيق في المدرسة، حسب زعمه، المدرسة الإعدادية التي يذهب إليها شباب منحدرون من فئات الشعب كافة. لم تكن تواجهه أي صعوبة في فهم المواد. لاحظت، ولم تخلُ ملاحظتي من انزعاج، أنه يتصرف ويتحدث مثل الشباب الخلاسيين الذين يرتدون ملابس مزركشة ويركبون دراجات فاقعة الألوان، ويتسكع بعضهم مع بعض في شوارع المدينة، في تقليد رخيص لأبطال الأفلام والأبطال الرياضيين. صار يدخن أيضًا، وتغاضت عن ذلك «ليدا» التي كانت مستعدة لأن تتحمل كل ما يفعل. كانت فخورة بابنها بالتبني وتفعل له كل ما تستطيع فعله. كان لكلٍّ منهما غرفة نوم في أحد المباني الملحقة بالفندق، ولكن غرفة «أوروخ» أرحب من غرفتها ومفروشة بعناية أكبر. كان أكبر أحزانها موقف النزلاء من علاقتها بـ«أوروخ»، موقفهم المليء بالانتقاد

t.me/qurssan

والسخرية. لاحظت حتى هي نفسها هذا الأمر، لكنها بلغت من السذاجة أنها لم تفهم القصد الأعمق وراء ثرثرتهم. أحس «أوروخ» بهذا الشيء أيضًا، لكن بدا عليه أنه يستمتع به إلى حدٍّ ما. لم يكن يتدخل في حياة الشابين الأعزبين، ويعامل الزوجين الكهلين بغطرسة واضحة. أما بالنسبة إلى الآنستين، فلم أرَه في حياتي بذلك الاستهتار والصفاقة كما في حضورهما. بعد الظهر، عندما نتنزه في الحديقة، نراهما على العموم جالستين في شرفتهما الأمامية الصغيرة، مشغولتين بطلاء أظفارهما أو بأعمال تجميلية أخرى. كل منهما في ثوب منزلي فضفاض رث، وشعر غير مرتب، وخفين مهترئين، وقد جلست بوضعية نصف استلقاء في كرسي خيزراني، ورفعت ساقيها إلى فوق الدرابزين بلا حياء ولا خجل، وتهزهز كرسيها من دون توقف. تهتفان لنا بكلمات مداعبة شتى، لا أفهم مغزاها الخفي إلا بعد حين، أما «أوروخ» فيبتسم ابتسامة غامضة، وينظر من زاوية عينه إلى الطرف الآخر متظاهرًا بالخجل. مع ذلك نبقى بالقرب من الفتاتين نتباطأ في المشي. عادة، تظهر برطمانات الحلوى، المحتوية على تمر هندي محلًى أو حلوى تسمى «جولالي»، وينتهي المطاف الحلو بي أنا و«أوروخ» فنجلس على درابزين الشرفة، ونأكل من الحلوى، بينما يأخذ الكلام المتبادل

t.me/qurssan

طابعًا جريئًا أكثر فأكثر. يستطيع «أوروخ» أن يقول بنصف ابتسامة أشياء في منتهى الصفاقة وهو يحملق في عيون المرأتين. تصيبهما هذه النظرة الغامضة بالحيرة والإرباك، فلا تعرفان هل يجب أن تغضبا منه أم لا. تردان على العموم بتوجيه بضع نكزات أو ركلة، على سبيل المداعبة، في محاولة لاستدراجه إلى المزاح واللهو. على الرغم من أنني أدرك أن هاتين النزيلتين تستحقان اشمئزازي، فإنني أشعر بالانجذاب إلى أحاديثهما ومزاحهما المتهكم. يراودني الإحساس بالذنب، عندما تنادي «ليدا» من بُعد بأن الوقت قد حان لعودتي إلى بيت الطلاب. أندهش من هدوء «أوروخ» الساخر، الذي يمشي معي مسافة قصيرة، بعد أن يودع المرأتين ببضع كلمات، ويشعل سيجارة. في ذلك الوقت، خُيِّل إليَّ أن تواصلي مع «أوروخ» قلَّ عما كان عليه في السابق. لم تكن تواجهه أي مشكلة من مشكلات المراهقة التي كنت أعاني منها. اعتراني إحساس بأنني غِرٌّ وساذج مقارنة به. لعل حريتي المحدودة في الحركة، سبَّبت لي عقدة النقص هذه. كان بإمكان «أوروخ» أن يفعل ما يريد في المساء، في حين إنني، ما عدا في حالات استثنائية للغاية، قلما أحصل على الموافقة بالخروج إلى المدينة بعد التاسعة مساءً. لا أعلم أي العواطف دفعت «ليدا» لأن تكرس حياتها

t.me/qurssan

كلها لـ«أوروخ». هذا الأمر يبقى بالنسبة إليَّ في إطار التخمينات فحسب. أصف تلك الأحداث مثلما عشتها وأحسست بها في ذلك الوقت. لن تواتيني أي فرصة لأن أطلب من الناس المعنيين أن يقدموا تفسيرًا عما كان يصدر منهم من أفعال وأقوال. أيضًا بالنسبة لدوافع «ليدا»، لا أستطيع إلا أن أتحسس في الظلام. أحيانًا، يخطر في بالي أن إحساسها بالوحدة هو الذي دفعها لرعاية «أوروخ»، حاجتها الداخلية لأن تعثر بين الناس كلهم على شخص تستطيع أن تقدم له يد العون والإرشاد. إذ إن مهنة التمريض بالنسبة إلى معظم النساء اللاتي يخترن ممارستها ليست أكثر من منفذ يحاولن التنفيس عبره عن غريزة عميقة غير مشبعة. وأحيانًا، يخيَّل إليَّ أن «أوروخ» هو الذي سحرها ـ وسحرني، وسحر كل الذين تعامل معهم ـ بشخصيته، فقد كانت له شخصية من تلك الشخصيات السلبية المؤثرة التي تملك جاذبية خاصة لا يستطيع المرء مقاومتها. عندما كان «أوروخ» في المدرسة الإعدادية، فقد كل ما يضفي عليه سمة الصبي القروي الذي كانه في «سوكابومي». تولاني إحساس أنه يعمل قصارى جهده من أجل إلغاء كل ما يذكِّر بماضيه. أصبح يتحدث الهولندية فقط، صارت ملابسه أوروبية بشكل لافت للانتباه. لم يكن يظهر أي ألفة حيال

t.me/qurssan

العاملين عند «ليدا». يفضِّل تجاهل كل التلميحات التي تشير إلى طفولتنا، وإلى «سيدريس» وإخوته وأخواته. المرة الوحيدة التي أوشك فيها أن ينقض عليَّ، كانت تلك المرة التي تحدثت فيها عن أبيه بحضور بضعة من رفاقه في المدرسة. غمرتني الدهشة عندما لاحظت أن «أوروخ» يحاول جهده مواصلة حياته على أنه من أصل مختلط. كنت أعلم أنه يحتقر هذه الفئة من الشعب إلى حد الاشمئزاز. لكن يبدو أن رغبته في الانصهار بالعالم الأوروبي بلغت من القوة أنه استطاع أن يقدم هذا التنازل. الأمر الذي سهل انتقاله من جوه القديم إلى الجو الجديد هو إقامته عند «ليدا» وتواصله شبه الدائم مع رفاقه في المدرسة، الذين كان ثلاثة أرباعهم على الأقل من أصول مختلطة، وينتمون إلى جماعة تطمح مثله إلى تبني طريقة الحياة الغربية. في إحدى المرات، حضرت نقاشًا بين «أوروخ» و«ليدا» عن إمكانية أن تمنح «ليدا» كنيتها لـ«أوروخ». حتى إنني أتذكر أن «ليدا» حاولت فترة من الزمن أن تنادي «أوروخ» بـ«إد» أو «تِد» أو اسم من هذا القبيل، لكنها لم تستطع أن تثابر على هذا الأمر. في بعض الأحيان، كنا نذهب إلى دار السينما، التي يرتادها «أوروخ» وحده عادة. أصبحت أفلام الكاوبوي تستهوينا أقل من فيلم طرزان وأفلام الرعب، وراق لنا أيضًا أن

t.me/qurssan

نضرب باعتبارات عمرنا عرض الحائط، ونحضر أفلام الإثارة الجنسية. بعد انتهاء هذه العروض، نصادف على العموم بضعة من أصدقاء «أوروخ»، ونذهب معهم إلى مقهى صيني، يحاول مضاهاة المقاهي الأمريكية في مسائل الخدمة والأثاث. نجلس على مقاعد البار وسط الأواني المعدنية والزجاجية، ونأكل البوظة و«البامي»، في حين يرسل جهاز الفونوغراف الكهربائي موسيقى الجاز الصاخبة في أرجاء المحل. في هذه الفترة، بدأنا نتواصل مع الفتيات أيضًا، معظمهن أخوات معارف «أوروخ»، من البشرة السمراء، الناضجات قبل الأوان، اللاتي يسبِّبن لي الإرباك بضحكهن الصاخب الذي لا يُعرف له سبب، ومغازلتهن التي تظهر على شكل فورات بين الحين والآخر. كان «أوروخ» يظهر توددًا تجاه واحدة منهن، تُسمى «بوبي»، فاتحة البشرة والشعر إلى حد ما. في بيت هذه الفتاة تعلمنا الرقص؛ شعرنا حينذاك بأن عدم قدرتنا على الرقص خلل في تربيتنا يقف عائقًا أمامنا.

كانت «بوبي» تعيش مع أمها، امرأة مطلقة، سمينة جدًّا، وجاويَّة خالصة، في حي مشيد حديثًا على طرف المدينة. كان البيت الصغير المبني على الطراز الحديث يقوم على قطعة أرض لفحتها الشمس القوية، ولا يريد شيء أن

t.me/qurssan

ينمو عليها. كان الحر في غرفة الجلوس المزينة بشبابيك من الزجاج المعشق بالرصاص لا يُطاق أيضًا. بينما تلتصق ملابسنا على أجسامنا، نراقص الفتيات، رقصة التانغو أو الفالس، على الموسيقى الحزينة الصادرة من أقراص الفونوغراف التي طالها بعض التلف. تجلس أم «بوبي» في كرسي بكامل عرضها، وتنظر إلينا وفي يدها مروحة ورقية. كان الرقص وارتياد السينما من أهم الأشياء التي نتسلى بها في ذلك الوقت، لكننا في أيام الآحاد نذهب أيضًا في بعض الأحيان إلى الميناء أو غابات المانجروف الساحلية خارج «تاندنوك بريوك». نتسكع في سوق السمك ذات الرائحة النفاذة، الممتدة على طول القناة التي تبحر فيها السفن الكبيرة التقليدية بأشرعتها ذات اللون البني الأحمر. نتمشى حتى المنارة القائمة على نهاية رصيف المرفأ الضيق، الذي اكتست فيه قطع الأسمنت المنقلعة بطبقة من الطحالب والأصداف اللزجة. حتى في هذا المكان لم يكن بمقدور نسيم البحر أن يخفف من شدة الحر. كان الضوء المتوهج يترجرج فوق أسطح مخازن الميناء المصنوعة من التوتياء المموج، وعلى أرصفة الميناء المفروشة بالحصى، وفوق البيوت البيضاء المحيطة بسوق السمك. يلوح السديم فوق البحر ويعيق رؤية

t.me/qurssan

الأفق. في بعض الأحيان، نسبح بعيدًا عن الرصيف، كي نعرض جسارتنا بالدرجة الأولى، لمعرفتنا أن أسماك القرش موجودة في هذه المنطقة. ما كان يجذبنا أكثر هو غابات المانجروف، على الرغم من بعوض الملاريا الذي تعج به مساحات ما بين جذوع الشجر البيضاء العليلة. كانت الدروب السالكة رخوة تحت أقدامنا، والمكان تملأه رائحة العفونة المشبعة بالملوحة. في الأماكن التي تنبثق النباتات والأشجار من المياه، لا يتوقف صوت الامتصاص حول الجذور. وعلى سطح الطبقات الطينية التي توصل اليابسة بالبحر، تنفقئ فقاعات الهواء من دون توقف. نعثر بين الحين والآخر على شاطئ صغير بين الأشجار، لكن المياه لا تغرينا بالسباحة، بالإضافة إلى أن البراغيث لا تتركنا وشأننا، فهي تحط على أجسامنا ما إن نخلع ثيابنا. عادة نتمشى على الشاطئ، على الدرب الضيقَ أحدنا وراء الآخر، وننحني بين الفينة والأخرى لنتفادى الأغصان القاسية التي تعيق طريقنا. عندما نبلغ قطعة أرض جافة، نجلس بعضًا من الوقت. تدور أحاديثنا دائمًا عن المواضيع نفسها: مدارسنا، معارفنا المشتركين، الرياضة، السينما، الفتيات. في إحدى المرات تحدثنا عن مستقبلنا. كنا قد رقدنا على ظهرينا، بركب منثنية، ومناديل الجيب

t.me/qurssan

الخاصة بنا تحت رأسينا. يعج المكان حولنا بالحشرات التي نحاول إبعادها بدخان سجائرنا. أخبرت «أوروخ» بأنني أنوي دراسة الهندسة، وبعد أن شرحت دوافعي بالتفصيل الدقيق سألته:

ـ وأنت؟ أما زلت مصرًّا على الالتحاق بكلية الطب الهولندية-الجاوية؟ هل هذا ما تريده حقًّا؟

رمى «أوروخ» عقب سيجارته إلى مكان بعيد بين الشجيرات، وقال بنبرة لامبالية:

ـ ولمَ لا؟ إما هذا أو ذاك. عمل المكاتب لا يطاق. الطبيب على الأقل سيد نفسه. سيأتي الجميع إليَّ ليرقدوا تحت مشرطي.

وأصدر مع الكلمات الأخيرة الصوت الذي يصدره الإنسان عندما يتحدث عن حز العنق.

قلت:

ـ يا لحظ مرضاك!

ثم:

ـ لكنهم سيخافون منك.

تمتم «أوروخ» وهو يشعل سيجارة أخرى:

t.me/qurssan

ـ كلهم من أهل القرى، ثم إن «الدوكون»[1] يقتل مزيدًا منهم، بعقاقيره وشعوذته، ومع ذلك يفضلون التداوي بالسحر على الذهاب إلى طبيب حقيقي.

بدأت الكلام:

ـ صحيح، ولكن من الممكن أن يثقوا بك، لأنك...

أردت أن أقول: «لأنك واحد منهم»، لكنني بلعت كلماتي، عندما التقطت نظرة «أوروخ» الجانبية السريعة، كانت داكنة متوعدة، إذ إنني تجرأت على التطرق إلى هذا الموضوع المحظور، فاستأنفت سريعًا:

ـ ولكن ما الذي تنوي فعله في المستقبل... هل ستعمل في الخدمة الحكومية؟

تذكرت أنني سمعت ذات مرة أن منحًا دراسية تُمنح للراغبين من أهل البلد في دراسة الطب.

رفع «أوروخ» كتفيه. كان قد جلس القرفصاء في تلك اللحظة؛ فقط السهولة التي يوازن بها جسمه كله على مشط قدميه، والاسترخاء الذي يظهر على تقاطيع الكتفين والظهر والردفين، كفيلان بالكشف عن أصله. قال متفاديًا الإجابة:

---

(١) الطبيب الشعبي. (المترجمة).

t.me/qurssan

ـ ربما.

أضاف بعد برهة صمت قصيرة:

ـ أريد أن أرحل من هنا.

فنهضت وسألت باندهاش:

ـ إلى هولندا؟

أصدر «أوروخ» من حنجرته النبرة المزدوجة التي يمكن أن تحل في الهند الشرقية محل «نعم». قال فجأة:

ـ لكنني أفضِّل أمريكا.

كان قد جمع حجارة صغيرة وقواقع مكسورة، فأخذ يقذفها بسرعة إحداها تلو الأخرى إلى جذع شجرة يابس غير بعيد عنا. كانت أمريكا بالنسبة إلى «أوروخ» البلد المنشود، البلد الذي تصورنا نحن الاثنين أن كل شيء فيه أكبر، وأفضل، وأجمل من أي مكان آخر في العالم. كانت الأفلام والمنشورات تركت لدينا انطباعًا بأنه بلد تقوم فيه ناطحات السحاب والمعجزات التقنية بمحاذاة النقيض الآخر: سهول «الغرب المتوحش». لكن توق «أوروخ» لم يكن توقًا إلى المغامرة فحسب. فهمت منه لاحقًا أنه كان يظن ـ ظنًّا خاطئًا وفق اعتقادي ـ أن مسألة العرق والمكانة لن تشكل بالنسبة له ولا للآخرين أي أهمية في «العالم الجديد».

t.me/qurssan

تحدثنا عن «ليدا» أيضًا. لم أستطع قَطُّ أن أعرف موقف «أوروخ» منها. الآن وأنا أسترجع ذكريات تلك الفترة، لا أستطيع القول إنه كان يعاملها بحب أو حتى باحترام ملحوظ. لاح عليه أنه يعتبر رعايتها الجيدة له، والتضحيات التي تقوم بها من أجله، واهتمامها الذي لم يفتر يومًا بتقدمه وإنجازاته، وتسامحها معه وثقتها به، من الأمور البديهية للغاية. كما ذكرت آنفًا، كان «أوروخ» صاحب شخصية سلبية. لقد تقبل مجرى حياته في تلك الفترة، كما تقبل إقامته في «كيبون دجاتي» وعلاقته معي في الماضي. لذلك لا أصدق أن علاقته بـ«ليدا» كانت حقيقية فعلًا. كان «أوروخ» مطيعًا إلى حد بعيد، يفعل على العموم ما تريده «ليدا» من دون اعتراض. لعل «ليدا» هي نفسها لم ترغب في أن يكون هناك رابط عاطفي بينهما. لم ترغب في أن تكون سوى عامل مساعد يساهم في تطوير هذا الإنسان، الذي بقي غريبًا عليها بكل ما يملك من أشكال التعبير، لكنه ربما لهذا السبب بقي يستعطفها ويستميل قلبها. كانت هي نفسها تبلغ من التحفظ، والرزانة أيضًا، أنها لا تظهر مشاعر الحنان نحوه ولا تنتظر أن يظهرها نحوها. أستطيع أن أتصور أنها كانت ترى مكافأتها في التقارير المدرسية الممتازة التي يأتي بها «أوروخ» إلى البيت، وفي تطوره من صبي قروي بائس إلى طالب متفوق. كما أنها كانت

t.me/qurssan

مشغولة بعملها الجديد إلى درجة أنها لم تكن تنشغل بأموره كثيرًا.

لم تجرِ الرياح بما تشتهيه سفن «ليدا» في فندق «آود-بوسوم». أشفق على حالها، عندما أتخيل كيف كانت تكدح في محيط يعادي طبيعتها وتكوينها. عندما كان «أوروخ» في الخامسة عشرة من عمره ـ كان حينذاك في الصف الثاني من دراسته الإعدادية ـ اكتشفت «ليدا» مصادفة أن الزيارات التي يقوم بها للمرأتين الشابتين، النزيلتين في فندقها، المذكورتين آنفًا، في ساعات القيلولة، بذريعة جلب الحلوى أو شراء بعض الحاجيات الصغيرة لهما، لم تكن زيارات بريئة. سمعت من «أوروخ» حقيقة الأمر في وقت لاحق، ولكن لا حاجة للخوض في التفاصيل هنا. كان هذا الشيء صفعة على وجه «ليدا». أدركت لأول مرة أن «أوروخ» يحتاج إلى إرشاد وتوجيه في هذا المجال أيضًا. رأت بطبيعتها البريئة أن الذنب لا يقع على عاتق «أوروخ». طلبت من النزيلتين ترك الفندق، وصمَّت أذنيها عن اعتراضهما وتلميحاتهما الواضحة. لامت نفسها على أنها سمحت لهذه الأمور أن تحدث في فندقها، وإن كانت من دون علمها. لم تعرف كيف تتعامل مع هذا المظهر الجديد من مظاهر تربية «أوروخ». أخذت تراقبه عن كثب، وبدأت تتوهم وجود مخاطر لم تكن موجودة.

t.me/qurssan

أصبح التسكع مع الفتيات في المدينة، واجتماعات الرقص في بيت «بوبي»، وارتياد دور السينما يبث الرعب في كيانها. كانت تعرف «أوروخ» بما فيه الكفاية لتدرك أن الحقائق البيولوجية ليست من الأمور التي يحتاج فيها إلى إرشاد وتوجيه، بل أساليب التصرف وآداب التعامل التي تؤهله لأن يميز اللباقة من الصفاقة، والسمو من الانحطاط، أي الانضباط الداخلي، والترفع عما هو زائف. ارتأت «ليدا» أنه من الضروري أن يتلقى «أوروخ» الإرشاد في هذه الأمور من رجل. توقعت أن تحدث خلافات ليست في الحسبان إذا ما بقي «أوروخ» ساكنًا عندها في الفندق في السنوات المقبلة من مراهقته، لا لأنها خائفة من أن يقع في تكرار ما حدث مع السيدتين المذكورتين، بل لأنها تخشى ألا يكون بمقدورها أن تفرض على الصبي الانضباط الذي يحتاجه. بات من البديهي أن تلجأ إلى صاحب السلطة الوحيد الذي تعرفه في محيطها المباشر: مدير بيت الطلاب الذي كنت أقيم فيه. لا أعلم كيف نجحت «ليدا» في إقناعه بإدخال صبي يختلف في المنشأ والتعليم عن الطلاب الآخرين إلى بيت الطلاب. أخشى أن دور الاعتبارات المالية في اتخاذ هذا القرار كان أكبر من دور الاعتبارات الأخلاقية، ولكن من يعلم؟ من الممكن أيضًا أنه تعاطف مع «ليدا». بقي «أوروخ» في بيت الطلاب حتى انتهائه من دراسته

t.me/qurssan

الإعدادية. في البداية، أحس بالإهانة والإساءة إليه لأنه وُضع له حد. لم يعجبه برنامجنا اليومي الصارم ولا الجو العام في الدار. صار عنيدًا ومتمردًا، وأخذ يخرق القوانين المتعلقة بساعات الخروج من المبنى، وانعزل عن الجميع، وعني أيضًا. استوعبت شيئًا فشيئًا أن تصرفاته تلك لم تكن متأتية من رغبته في الحرية فحسب، وإنما من رغبته في التأثير على الصبيان الآخرين بشكل أساسي، لأنه يعلم أنه لا يستطيع كسبهم إلى صفه إلا بعرض هذه «العنتريات».
كان الجميع يعلم أن «أوروخ» صديقي، حتى قبل أن يأتي للإقامة في بيت الطلاب. لم أخبئ عن أحد المنشأ الذي ينحدر منه «أوروخ»، لأن رأي الصبيان، بغض النظر عما إذا كان ناقدًا أو ساخرًا، لم يكن يهمني بأي حال من الأحوال. لم أتأثر بتعليقاتهم من قبيل: «رأيناك في البازار مع خادمك» أو «هل خرجت مع عزيزك الجاويِّ من جديد؟» لأنها لم تخرج عن نطاق المزاح ولم تؤثر على علاقتي معهم لا إلى الأحسن ولا إلى الأسوأ. لكن تغير هذا الشيء، عندما جاء «أوروخ» للإقامة في بيت الطلاب. سرعان ما عشنا نحن الاثنين في نوع من العزلة وسط الآخرين. لا أقول إنه كان ثمة شيء في هذا الوضع ينم ولو من بعيد عن مقاطعتهم لنا أو تظاهرهم ضدنا. أراهن أن أغلبهم لم يكونوا على علم بشيء. لا أعرف إلى أي مدى ساهم موقف «أوروخ»

t.me/qurssan

المتحدي في هذا الشيء. ما أعرفه أنهم في بيت الطلاب كانوا يميلون على العموم إلى تمجيد «العنتري» أكثر منه إلى تفاديه. ما خلق تلك المسافة هو اختلاف «أوروخ»، اختلافه العصي على التعريف، ذلك التباين الطفيف في السلوك والطبيعة؛ في الهالة المحيطة به، لو جاز لي التعبير عن هذه الأشياء بالكلمات.

لم تمارَس أي عدوانية تجاه «أوروخ». ما كان يحدث هو نوع من اللامبالاة حياله، نوع من عدم الاهتمام به. باءت محاولاته في جذب الانتباه إليه بالفشل بطريقة أو بأخرى. أظن أن «أوروخ» أدرك ذلك سريعًا. واظب على تصرفاته المتهورة والمستهترة فترة من الزمن، لكنه تراجع فجأة بعد ذلك، وعاش في انطواء لم أعهده فيه حتى عندما كنا في «كيبون دجاتي». أصبح صموتًا إلى أبعد الحدود، ولم يحدث أن حادت تلك النظرة الداكنة الحذرة عن عينيه. كنا ننام في الغرفة نفسها، ولكن وجود رفيقين آخرين معنا في الغرفة منعنا من الخوض في أحاديث خاصة. كما أنني أشك في أن «أوروخ» كان سيكشف لي النقاب عما يدور في خاطره، حتى عندما نذهب للتنزه، الأمر الذي بتنا نفعله أقل من السابق، أحس بأنه يبقي مسافة بيننا بحذر شديد. لم أصاحب

t.me/qurssan

«أوروخ» تلك الفترة كلها عبثًا. على الرغم من أنني كنت غارقًا في مشكلات مراهقتي (لم أتلقَّ مثله أي توجيه من أحد)، فإنني كنت أحس، ولم يخلُ إحساسي من إشفاق، بما يؤرق مضجعه. عندما كان في المدرسة الإعدادية، استطاع أن يواظب على إحساسه بالمساواة معنا من دون أي صعوبة، لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك في بيت الطلاب. لم تستطع ملابسه ولا تصرفاته أن تحقق له ما يرنو إليه: أن يصبح واحدًا منا. لعله في ذلك الوقت بالتحديد، بدأت تتشكل فجوة بيني وبين «أوروخ». إذ إنه لم يستطع إلا أن يعتبرني واحدًا من الجماعة الأوروبية، التي يحس بأنه منبوذ منها. علمت أنه قطع علاقته مع أصدقائه وصديقاته من ذوي الأصول المختلطة، ولم يعد يراهم خارج أوقات المدرسة. بدأ يتواصل بشكل مكثف مع شخص يدعى عبد الله هارودين، شاب ينحدر أحد أجداده من أصول عربية، ينوي الالتحاق بكلية الطب الهولندية-الجاوية مثل «أوروخ». شعرت بشيء من الغيرة من هذه الرفقة التي لم يشركاني فيها. لم أعرف إن كان ذلك متأتيًا عن رغبة من «أوروخ» نفسه أم عن رغبة من عبد الله. الحق أن اللقاء لم يجمعنا نحن الثلاثة إلا نادرًا، أو بالأحرى لم يجمعنا على الإطلاق. الآن، وأنا أسترجع تلك الفترة، أعتقد أن «أوروخ» بحث في

t.me/qurssan

علاقته مع عبد الله عما يعوضه عن الظروف التي عاشها في بيت الطلاب. كان عبد الله قصيرًا وسمينًا، بوجه ينم عن الذكاء، وشعر أجعد، يلبس نظارة كبيرة بإطار أسود، تضفي عليه مظهرًا كوميديًّا إلى حدٍّ ما. تقارب روح الفكاهة لديه تلك التي يتسم بها «أوروخ». يتشارك أحدهما مع الآخر في عالم من الأفكار أحسست بأنني أبتعد عنه، كلما كبرت في العمر. في تلك الفترة، كان يحدث كثيرًا ألا أذهب مع «أوروخ» إلى بيت «ليدا» في أيام الآحاد أو أوقات الفراغ في المساء، لأن «أوروخ» يتواعد مع عبد الله على اللقاء. أزعجني هذا الأمر، وقلت له ذلك في إحدى المرات. نظر إليَّ «أوروخ» من دون أن يقول أي شيء، وأظن أنني رأيت عليه شيئًا من الرضا. أصبح تبادل الأحاديث الحميمة غير ممكن. في العطل، كنت أذهب في بعض الأحيان إلى «كيبون دجاتي»، التي بدت لي أنها تغيرت كليًّا، كأنما بفعل السحر. امتلأ البيت بأثاث جديد، وأعيد ترتيب الحديقة بدروب من الحصى وأحواض زهور محاطة بعناية بالغة. لم أعرف وجوه الخدم. كانت «أوخيني»، التي سمنت بعض الشيء وبدت في هيئة المستبد المعافى بشكل أو بآخر، قد بسطت سيطرتها ليس على منزل المدير فحسب، وإنما أيضًا على المزرعة كلها. بدا أبي بصحة جيدة وراضيًا.

t.me/qurssan

ترهل ذقنه وتدلى على ياقة قميصه، فجعله، على غرابة الأمر، يشبه الضفادع الكبيرة التي اعتدت أنا و«أوروخ» أن نصطادها في زمن طفولتنا. كنت إذا ما رأيته على هذه الهيئة، مالئًا الكرسي بعرضه، في قميص مرفوع الكمين، وحزام بنطاله مشدود على بطنه، لم أستطع أن أتصور أن هذا الرجل هو نفسه الذي كان يجلس، مهمومًا قبل بضع سنوات، في الشرفة الداخلية إلى جانب جهاز الفونوغراف الكئيب. لقد اختفى جهاز الفونوغراف، وقام مكانه سرير أخي الصغير غير الشقيق. أعطاني أبي بضع رسائل كتبتها لي أمي من مدينة نيس الفرنسية التي كانت تقيم فيها على ما يبدو. أشعرني الورق البنفسجي الفاتح، العابق بعطر خفيف، بالاشمئزاز والنفور. كتبت لي أمي وكأنني لا أزال طفلًا صغيرًا، ووضعت في الظرف صورة سيارة سباق من موديل حديث مقصوصة من جريدة. رأيت «أوخيني» تنظر إليها، فتدفق الدم إلى رأسي. أرسلت أمي تحياتها إلى «أوروخ» أيضًا، وسألت: «إلى أين وصل؟». وضعت الرسائل في خزانة غرفة الضيوف، وقررت ألا أرد عليها. كان «خيرارد» في إجازة، لذلك شعرت بوحدة مطلقة في «كيبون دجاتي». رحت أتسكع في حقول الشاي، التي بقيت هي وحدها من دون تغيير واحتفظت بجاذبيتها كلها. الرائحة اللاذعة المنبعثة

t.me/qurssan

من الخضار، أزهار «البونسيانا» المنعكسة على السماء، أصوات قاطفات الشاي المتناهية من أماكن بعيدة في الهدوء السائد، هذه الأشياء كلها باقية على حالها من دون تغيير. في هذا المكان يبدو أن مرور السنوات غير مهم وسريع مثل الحلم. أجلس على حافة ممر جبلي مفروشة بالعشب، مطلة على وادٍ عميق، وأحدق في السهول المغطاة بسديم الحر المائل لونه إلى الأزرق. أسمع حفيف الرياح المتناهي من غابات الخيزران القريبة من مساكن القرية، وخرير الجداول المنسابة بين الخضار. يحوم سرب من الفراشات فوق شجيرات «التامبلنج» كعادته الأزلية. أشعر أن هذا المشهد مفتقر إلى التناغم في غياب «أوروخ». يخيَّل إليَّ أن حواسي عاجزة عن الإحساس بهذا العالم الجبلي، إن لم يكن «أوروخ» موجودًا معي. من دونه، المنظر الطبيعي غير مكتمل. دفعتني حاجتي الداخلية إلى إكمال هذا النقص، فذهبت لزيارة «سيدريس» في إحدى المرات، لكنني كنت هناك أيضًا قد أصبحت غريبًا. لاح على «سيدريس» أنها خائفة من مناداتي باسمي الأول، كما اعتادت أن تفعل في الماضي. رأت أنني كبرت، كبرت جدًّا على الجلوس على الحصيرة في شرفتها الأمامية. جيء من إحدى الغرف الداخلية بكرسي متداعٍ، فجلست عليه، مطلًا

t.me/qurssan

من العلياء على «سيدريس» والساكنين معها، الجالسين على الأرض. تولاني إحساس مزعج فظيع. تحدثت معي «سيدريس» بصيغ وعبارات سوندية يستخدمها عادة ذو المنزلة الأدنى مع صاحب المنزلة الرفيعة. أردت أن أفعل معها الشيء ذاته، لكنني لم أجرؤ على ذلك، خشية أن تفكر في أنني أسخر منها. سألتني «سيدريس» عن «أوروخ» الذي لم ترَه منذ ما يزيد على العامين. تحدثت عنه بنبرة تلمستُ فيها مزيجًا من الفخر والحزن. لم تنطق بكلمة واحدة تنم عن تشكّيها من عدم مجيئه أو إرساله رسائل لها. اعتراني إحساس بأنها رضخت للأمر الواقع وتقبلت حقيقة أن «أوروخ» هجرها وهجر عالمها إلى الأبد. لم أبقَ طويلًا عند «سيدريس». بينما أعود أدراجي على الطريق المنحدر، نظرت إلى الحي، وحقول الأرز، وسلسلة الجبال الخضراء، والغيوم فوق قمم الجبال، وأنا أشعر بأن هذه الأشياء كلها تنطبع بحدة غير مسبوقة على شبكية عيني، وكأن وعيًا خارج وعيي يحدس بأن هذه هي آخر مرة أرى فيها هذه الأشياء كلها على هذا النحو. ذهبت إلى «التيلاجا هيدونج» أيضًا. لم أكن قد ذهبت إليها منذ حادث «ديبو». كانت البحيرة تعطي انطباعًا، على غرابة الأمر، بأنها حتى في وضح النهار مضاءة بنور القمر. كان الضوء النافذ إلى سطح

t.me/qurssan

المياه من بين قمم الجبال وتيجان الأشجار المائلة، ذا لون أخضر ذهبي، مثل الضوء المنساب عبر الزجاج الملون في نوافذ الكنائس. رأيت النباتات الطافية على السطح، والحلقات والتموجات المائية، في المكان الذي اختفى فيه أبو «أوروخ» في الأعماق. يسود سكون الظهيرة المطبق في الغابة المحيطة بالبحيرة. لا يتحرك أي شيء سوى الأوراق في قمم الأشجار في النسيم. رحت أحدق في الأماكن الظليلة بين الخضار، التي ظننت في الماضي أنها مخابئ «نينا كومبيل». على الرغم من أنني لم أعد أؤمن بالأشباح والأرواح منذ سنوات عديدة، فلم تصبح البحيرة أقل رهبة. لم أعرف اسمًا ولا تعريفًا لذلك الخوف، لذلك الشعور بالضيق الذي تولاني، حينما حدقت في المساحة المائية السوداء المائل لونها إلى الخضرة. خُيِّل إليَّ أن هناك أماكن في البحيرة ـ الأماكن التي تتحرك فيها المياه ببطء أو تميل إلى الركود، وتنعكس عليها صور الأشجار في بهوت ـ تنعدم فيها تلك الشفافية الداكنة التي تلوح في الأماكن الأخرى. كنت أنظر إلى تلك الأماكن الغريبة المرتسمة بوضوح، وفي إحدى المرات خُيِّل إليَّ أنني أرى شيئًا أحمر يلمع في الأعماق، شيئًا يشبه دمًا داكن اللون. أرعبتني ورقة متساقطة من الشجر في تلك اللحظة، فقفزت من مكاني بقلب خافق.

t.me/qurssan

تحولت البحيرة إلى عنصر عدواني، وغريب، ومجهول تمامًا. احتجبت الشمس وراء سحابة عابرة فخيم الظلام على سطح المياه. لم أشعر إلا وأنا أهرول على الدرب الضيق المنحدر صوب الطريق الرئيسي، متعثرًا بالجذور والأحجار. شعرت بشيء ما يغريني بالنظر إلى الوراء، لكنني أجبرت نفسي على عدم الاستسلام لذلك الإغراء. في اليوم التالي عدت إلى باتافيا.

* * *

أنهى «أوروخ» دراسته الإعدادية بتقدير جيد، ورحل إلى «سورابايا»، أما أنا فقد بدأت السنة الرابعة في المدرسة الثانوية الخاصة. لم تكن كتابة الرسائل من نقاط القوة لدى «أوروخ»، كما توقعت تمامًا. لذلك كان عليَّ أن أرضى بسماع أخباره من «ليدا». كنت أزورها كثيرًا في تلك الفترة، ليس من أجل سماع أخبار «أوروخ»، بل من أجل أن أشعر بشيء من الجو المنزلي الذي عشته في بيتها في «سوكابومي»، الجو المنزلي الذي لم يكن موجودًا في بيت الطلاب إطلاقًا. لكن «ليدا» لم تعد قادرة على خلق ذلك الجو. جعلتها حرارة المناطق الاستوائية والهموم عصبية المزاج، وأثارت تجاربها مع النزلاء والعاملين عندها شكوكها في آخر الأمر. فقط هبات تألق مؤقتة

t.me/qurssan

لا تزال تنم عن «عقلية الصابون الأخضر»، التي كنت أنا و«أوروخ»، على الرغم من مزاحنا الساخر، نقدرها دائمًا في الخفاء. كلما ازدادت خيبات أملها بمشروعها الفندقي، علقت آمالًا أكبر على «أوروخ». أرتني صورة «أوروخ» وهو واقف وسط شباب من نفس عمره، أغلبهم طلاب من أهل البلد. سألتني وهي تحدق في الصورة من خلال نظارتها الخاصة بالتطريز:

- يبدو أنه على ما يرام، ألا ترى ذلك؟ أعجبته الحياة هناك. هذا أمر لا يدهشني بالطبع، فهو يتعلم بسرعة كبيرة. لا بد أن الحياة جميلة في «سورابايا». إنه يعيش مع عبد الله، عند أقربائه.

حفزتني نبرة الاشتياق في صوتها أن أرفع عينيَّ إليها. كانت وجنتاها بارزتين في وجهها الذي بات نحيفًا، وازدادت غرة شعرها شيبًا والتصقت بجبينها المبلل بالعرق كالمعتاد. أدركت على الفور ما الذي ترمي إليه. إنها تريد الانتقال إلى «سورابايا». تبين أن ظني في محله في الأشهر التالية. أخذت تسهب في الحديث معي عن رسائل «أوروخ». كان قد ازداد اهتمامًا بدراسته، وأصبح عضوًا في عدة نوادٍ لم يعطِ معلومات إضافية عنها، لكنها تشغل وقته كله. أدهشتني النبرة التي يكتب بها رسائله بعض الشيء.

t.me/qurssan

لم أستطع أن أتصور أن الذي يكتبها هو «أوروخ»، هاوي الذهاب إلى دور السينما والمقاهي، الساعي إلى التأنق مثل غندور أوروآسيوي، الطالب النبيه لكن اللامبالي. كانت هناك أسطر في رسائله الواردة من «سورابايا» تدل على اهتمامات مغايرة تمامًا. ينتقد فيها القوانين الحكومية المتعلقة بالصحة والنظافة، يأتي بأمثلة عن إهمال المرضى من الطبقة الدنيا من أهل البلد، على سبيل التوضيح، لكنه يفعل ذلك بطريقة تشعرني بأنه لا يستعمل كلماته بل كلمات شخص آخر. على الرغم من ذلك سجَّل في كلية الطب الهولندية-الجاوية، وحصل بذلك على منحة دراسية من الحكومة. قلت شيئًا عن هذا الأمر لـ«ليدا».

قالت متفادية الجواب:

ـ شيء جيد أن يرى الأخطاء عندما ترتكب الأخطاء.

بعد ذلك جاءت فترة ندرت فيها رسائله، ما كان يصل منها إلى «ليدا»، لم تعد تكشف عن مضمونه مثل السابق. أصبحت شاردة الذهن وسريعة الغضب، تقض مضجعها مشكلة لا تعرف السبيل إلى حلها. أخيرًا توصلت إلى اتخاذ القرار. باعت فندقها، للمرة الثانية، ورحلت بعربة ملأى بالحقائب والمفروشات إلى «سورابايا».

* * *

t.me/qurssan

بقيت على تواصل مع «أوروخ» و«ليدا» عن طريق رسائل متفرقة، وبين حين وآخر بطاقة أو خطاب بريدي مكتوب على جناح السرعة. فهمت من هذه المراسلة أن «ليدا» وجدت هي أيضًا مسكنًا مضيافًا عند أقرباء عبد الله. أصبحت رئيسة قسم التمريض في مستشفى جاويٍّ. على العموم، كانت هي التي ترسل الرسائل لي. أحيانًا، كان «أوروخ» يكتب اسمه أو تحية في أسفل الصفحة، ولا شيء أكثر من هذا. انقضى الوقت بسرعة كبيرة وأنا أجتهد في التحضير لامتحاناتي النهائية. نجحت بعلامات لا بأس بها، كما توقعت، بعد ذلك الجهد المضني. جاء أبي لزيارتي في باتافيا وتحدثنا عما يجب أن يحدث في المستقبل. كنت حينذاك في السابعة عشرة، أناهز الثامنة عشرة، وطويل القامة بالنسبة إلى عمري. تكفلت زوجة مدير بيت الطلاب بأن أحصل على بناطيل طويلة، فقد كنت أعطي انطباعًا مضحكًا ببناطيلي القصيرة، الصغيرة عليَّ، وساقيَّ النحيفتين المشعرتين. في أثناء شرب كأس من البيرة في نادي «الهارموني»، أطلعني أبي على خططه. وافق على رغبتي في دراسة الهندسة، وقرر أن يرسلني في تلك السنة نفسها إلى جامعة «دلفت» في هولندا. منذ تلك اللحظة جرت الأمور بمنتهى السرعة. حُجزت لي رحلة على سفينة نقل بريدي. مُلئ صندوق جديد مدهون حديثًا

t.me/qurssan

بأمتعتي القليلة. لأن «أوخيني» كانت على وشك أن تضع مولودها الثاني، لم أستطع أن أقيم في «كيبون دجاتي». لكنني قبل أن أغادر إلى هولندا، ذهبت إلى «سورابايا» من أجل أن أودع «أوروخ» و«ليدا».

كان «أوروخ» ينتظرني عند بوابة المحطة، وقد ارتدى مثلي بنطالًا طويلًا أبيض اللون. أصبح وجهه أنحف مما أتذكره، وملامحه أكثر جمودًا. رأيت على الفور تقريبًا أنه يرتدي قبعته من جديد. كان يقف هناك، مائلًا على إحدى ساقيه بعض الشيء، واضعًا يديه على خاصرتيه، وينظر في سكون إلى المسافرين الذين يعبرون حاجز التفتيش. عندما رآني، سار نحوي في تمهل واستهتار من أجل أن يرحب بي. خُيِّل إليَّ لحظة قصيرة أنني لا أعرفه. لقد اختفى الشاب الرشيق، بأحذيته القماشية الأمريكية، وقمصانه البراقة، بأساليبه «العنترية»، ونظراته المواربة السريعة التي يتوارى فيها الخجل والسخرية على حد سواء، وحل محله هذا الشاب من أهل البلد ذو الهيئة الجادة، البالغ أكثر مني، الناضج بوعي جديد، وعي ينسجم هذه المرة انسجامًا كاملًا مع ذاته. لم أستطع أن أحدد موقفي منه في الحال. تحدثنا قليلًا عن دراستنا، وعن امتحاناتي، وعن كلية الطب الهولندية-الجاوية. سألته عن أصدقائه وهواياته، فأجاب:

t.me/qurssan

ـ أتواصل كثيرًا مع...

تردد قليلًا ثم قال:

ـ مع أناس لهم قناعاتي نفسها. لا يزال أمامنا كثير من العمل.

فهمت من هذه الإجابة أنه يلمح إلى نشاطاته في الجمعيات التي كتب عنها في رسائله في وقت سابق، فسألته:

ـ تكلمت في بعض رسائلك عن نوادٍ. ماذا تفعل هناك، هل هي مسلِّية؟

أجاب «أوروخ» سريعًا:

ـ أوه، إنها ليست نوادي للتسلية. لقد أخطأت الظن. ليس لدينا وقت لهذه الأمور.

وأضاف:

ـ لذلك نقضي وقتًا ممتعًا، بطبيعة الحال.

سألته على سبيل المزاح:

ـ ألم تعد ترقص؟

تجهمت نظرة «أوروخ»، حتى إنه لم يبتسم. قال مرة أخرى:

ـ لا يزال أمامنا كثير من العمل.

t.me/qurssan

توقفت العربة، التي استقللناها عند المحطة، أمام بيت كبير من بيوت الهند الشرقية من الطراز القديم، قائم في شارع هادئ زاخر بالأشجار. شرفته الأمامية تكاد تتوارى كليًّا خلف عدد لا يحصى من أصص، كبيرة وصغيرة، يقوم فيها السرخس وشجيرات النخيل وشعر الغول، مصفوفة إحداها إلى جانب الأخرى على الدرابزين والحائط المنخفض الطويل. خرجت من ظلام الغرفة الداخلية امرأة في فستان قطني مزهَّر فضفاض، وخفين من القماش، شعرها الأشيب مسرح إلى الوراء ومثبت على الطرفين بدبابيس الشعر. طريقتها المتهادية في المشي فيها شيء جاويٌّ بما لا يدع مجالًا للشك. كانت «ليدا».

قالت وقد ارتسم على وجهها أثر من ابتسامتها العذبة السابقة:

ـ مرحبًا.

مررت يدها على جبينها ثم دعتني إلى الدخول. كان عبد الله وأقرباؤه جالسين في الركن الخلفي من البيت: شيخ سمين في طقم بيجامة، وفتاتان في نحو السادسة عشرة من العمر، بملامح «جاوية» رقيقة. لم يكن عبد الله قد تغير مثل «أوروخ». رحَّب بي مبتسمًا وسحب كرسيًّا هزازًا باتجاهي. اتسم حديثنا بشيء

t.me/qurssan

من التكلف. لم يكن بمقدورنا، لا أنا ولا «أوروخ» ولا «ليدا»، أن نسترجع النبرة الحميمة التي اعتدنا التحدث بها في السنوات الماضية، حتى لقد شعرت بأننا لن نستطيع استرجاعها مرة أخرى على الإطلاق. لم أستطع أن أرى في «ليدا» الجالسة بشيء من الانحناء، وبخفيها المتدليين من قدميها، وهي تقطِّع عودًا من تمر هندي محلًى إلى قطع صغيرة، المرأة التي عرفتها في «سوكابومي» وفي مرحلة لاحقة في باتافيا. ما حيرني هو لماذا تقيم هنا في هذا البيت. ليست هناك أزمة سكن في «سورابايا»، وإذا كانت تريد البقاء بجوار «أوروخ»، فبوسعها أن تجد حلًّا آخر بكل سهولة. كانت الشرفة الخلفية المفروشة بأثاث من الطراز القديم تعج بأقفاص تزقزق فيها أنواع مختلفة من الطيور وهي تتقافز في مكانها. كان طائر المينا رابضًا على مجثمه، وقد ربطت سلسلة رفيعة إلى ساقه. تعج هذه الشرفة أيضًا بالنباتات والسراخس المزروعة في الأصص الفخارية. يميل جو الحديقة الخلفية إلى الظلام، تكاد تسقفها الأوراق والجذور الهوائية المتدلية من شجرة التين البنغالي. أعلم أنه شيء غريب، لكن خُيِّل إليَّ لحظة أن هناك شبهًا بين هذه الشرفة الخلفية الظليلة، الملأى بالنباتات والطيور، وبين «التيلاجا هيدونج» على النحو الذي

t.me/qurssan

رأيته، عندما احتجبت الشمس خلف سحابة عابرة. اختفى هذا الإحساس جزئيًّا فحسب، عندما أضاءت إحدى قريبتَي عبد الله مصباحًا، لمبة ذات زجاج معتم، سرعان ما أخذت الحشرات تحوم حوله.

بعد تناول العشاء، أصبحت نبرة الحديث ألطف قليلًا. تحدثت «ليدا» عن عملها في المستشفى بأسلوب متباطئ متمهل لم آلفه منها. سألتها لماذا لا تعمل في مستشفى أوروبي. تبادلت نظرة مع «أوروخ» وعبد الله لم أفهم مغزاها.

قال «أوروخ»:

ـ إنها الآن تتكلم الملايوية بشكل جيد، وتتعلم الجاوية أيضًا.

أضافت «ليدا» من دون أن ترفع عينيها عن ابنها بالتبني:

ـ لكي أساعد «أوروخ»، عندما يبدأ بالعمل بين الشعب.

قال «أوروخ» بابتسامة خفيفة في عينيه:

ـ في المستقبل... ستكون هناك حاجة لذلك.

سألته:

ـ ستعمل في الخدمة الحكومية، أليس كذلك؟

t.me/qurssan

طرحت هذا السؤال ليس من أجل أن أسمع تأكيدًا منه، بل من أجل أن أقود النقاش إلى سياق أستطيع فهمه. رفع عبد الله، الذي كان يقشّر الفول السوداني، رأسه على نحو سريع مفاجئ.

أجاب «أوروخ»:

ـ لا. لا أنوي العمل في الخدمة الحكومية.

أدليت بدلوي في الموضوع:

ـ لكنك تحصل على منحة دراسية، أم أنا مخطئ؟

قال «أوروخ» وهو يومئ برأسه باتجاه «ليدا»:

ـ هي التي تمول دراستي.

نقلت نظري من أحدهما إلى الآخر. كانت الحشرات تحوم في أزيز وطنين حول المصباح. كان الشيخ، الذي لم يتكلم كثيرًا حتى ذلك الوقت، يتأرجح في كرسيه الهزاز بصمت. أخذت «ليدا» تعبث بقطعة خيزران متشظية في حافة الطاولة. لكن الرد على نظرتي جاء من «أوروخ» وعبد الله. باغتني شعور بأنهما كانا ينتظران هذه اللحظة منذ زمن طويل. أرادا الكشف عن أوراقهما أمام الخصم. في تلك اللحظة كنت بالنسبة إليهما رمزًا، تجسيدًا للشيء الذي انقلبا ضده بكل كيانهما. بذلت قصارى جهدي

t.me/qurssan

ألا أفقد إحساسي بالواقع، الذي حاول التملص مني في تلك الشرفة الخلفية الهادئة.

سألت «أوروخ»:

ـ ماذا تقصد؟

أجاب «أوروخ» بنبرة خالية من أي تعبير:

ـ أقصد أنني لا أريد أن أمد يدي للحكومة الهولندية. لستُ بحاجة إلى مساعدتكم.

فقلت والدم يتدفق إلى رأسي:

ـ مساعدتكم؟!

إذ إنني استوعبت معنى كلماته في تلك اللحظة:

ـ لكنك تمد يدك لـ«ليدا».

قال «أوروخ» بافتخار:

ـ «ليدا» تفكر مثلنا.

أعقب الحديث حديثٌ آخر، ونُسج حوار اضطررت فيه أن آخذ موقف الدفاع، لأنني لم أكن ملمًّا بالموضوع. كنت أعرف القليل أو بالأحرى لم أكن أعرف شيئًا عن التيارات القومية، والمدارس المتمردة، وعملية التخمر التي تحدث في طبقات معينة من المجتمع المحلي. استمعت بصمت

t.me/qurssan

إلى وابل الاتهامات والانتقادات التي أخذ «أوروخ» وعبد الله، وهما في حالة هيجان وفوران، يوجهانها إلى الحكومة، وإلى الهولنديين، وإلى ذوي البشرة البيضاء على العموم. رأيت أن الكثير من ادعاءاتهما يعتمد على أسس ضعيفة أو أنها ادعاءات مجحفة، لكنني لم أملك من الحجج ما أدحض به تلك الادعاءات. ازداد اندهاشي بمرور الدقائق، إذ تبين أن الجو الجديد الذي يعيش فيه «أوروخ» مع الطلاب الثوريين والشباب المحرضين قد جعل منه خطيبًا فصيح اللسان.

قال بعنف وهو ينظر إليَّ بثبات وقد استند بذراعيه إلى الطاولة:

- تعمدتم أن يبقى الناس القرويون، الشعب العادي، جهلاء. كان من مصلحتكم أن تمنعوا الناس من تطوير أنفسهم. لكن ذلك أصبح في عداد الماضي. نحن ستتكفل بهذا الأمر. إنهم ليسوا بحاجة إلى دمى «الوايانج»، ولا إلى «الجاميلان»[١]، ولا إلى الخرافات، ولا إلى «الدوكون». لم نعد نعيش في سلطنة «ماتارام»، ولا داعي أن تشبه جاوة الصور الموجودة على البطاقات البريدية من أجل السياح. ما لنا بهذه الترهات كلها؟! معبد «بوروبودر»

(١) الطبول الجاوية. (المترجمة).

t.me/qurssan

ليس أكثر من كومة حجارة قديمة. دعهم يعطوننا المصانع، والسفن الحربية، والمدارس والمستشفيات الحديثة، والكلمة العليا على شؤوننا الخاصة...

بينما «أوروخ» يلقي خطابه ويؤكد كلماته بإشارات من قبضته اليسرى، رأيت الوجوه المحدقة لمَن حولي كما لو أنني في حلم. تجلس قريبتا عبد الله في ركن مظلم من الشرفة الخلفية، خارج نطاق ضوء المصباح، وتتهامسان. يهز الشيخ رأسه في تأكيد وموافقة. يستمر عبد الله في تقشير الفول السوداني، لكنه عندما يرفع رأسه، أرى عينيه الداكنتين تتألقان خلف زجاج نظارته. تقول «ليدا» من حين إلى آخر:

ـ نعم... نعم.

لقد نزعت قطعة الخيزران المتشظية من حافة الطاولة، وأخذت تقطعها إلى ألياف رفيعة بأظفارها. لم تنظر إليَّ ولا مرة واحدة. راودني إحساس بأنها محرجة مني، وبأنها تعلم في قرارة نفسها أن هذه المثالية الجديدة هي آخر محاولة يائسة يقوم بها قلبها الطفولي الوحيد. أشفقت عليها، وكاد صدري يضيق لحالها. لو كان بمقدوري أن أعبِّر بوضوح عن هذه الأشياء كلها في ذلك الحين، لاستطعت ربما أن أدفع النقاش في منحى آخر. كنت جالسًا

t.me/qurssan

قبالة «أوروخ» وعبد الله وقد تولاني شعور بأنني ألعب دورًا في حلم مزعج. لازمني هذا الإحساس بالانفصال عن الواقع، حتى عندما ذهبت للنوم في الغرفة التي جهزوها لي. رأيت عبر النوافذ المفتوحة على مصاريعها النجوم المتألقة وراء أغصان شجرة التين البنغالي. تنبعث من حولي الأصوات الكثيرة الخاصة بالليل في الهند الشرقية التي آلفها وآنس إليها، لكنني شعرت مع ذلك أنني غريب بطريقة أو بأخرى. سمعت «أوروخ» وعبد الله يتحدثان بخفوت في الغرفة المجاورة. اكتمل الانفصال بين عالمهما وعالمي.

* * *

رحلت إلى أوروبا. ليس ثمة جدوى في الإسهاب هنا عن الفترة التي أعقبت رحيلي، وعن إقامتي القصيرة عند أمي في مدينة نيس الفرنسية، وعن دراستي في مدينة «دلفت» الهولندية، التي انقطعت عنها فترة من الزمن بسبب الحرب، ثم توقفت عنها بشكل كامل بسبب الإجراءات التي اتخذها الألمان. كانت لي مساهمة في المقاومة الهولندية، شأني في ذلك شأن معظم الهولنديين الذين أعرفهم. كنت أفكر كثيرًا بالمصير الذي آل إليه «أوروخ» و«ليدا»، وأبي وأسرته، المصير

t.me/qurssan

الذي لم يعد بوسعي إلا أن أخمن تخمينات عنه. بعد أن استسلمت اليابان، وصلتني بعض الأخبار عنهم. لقد مات أبي وأقامت «أوخيني» وولداها في باتافيا في انتظار السفر إلى هولندا. لم أسمع شيئًا عن «أوروخ» و«ليدا»، مع أنني حاولت بطرق عديدة أن أستفسر عن أخبارهما. أكملت دراستي الجامعية، وأقدمت على ما كنت أخطط له منذ سنوات: قدمتُ طلبًا على وظيفة في الهند الشرقية. لم يساورني القلق عن حالة الفوضى والتحالفات الغريبة التي تركها الاحتلال الياباني وراءه هناك. لم يراودني الشك ولو لحظة واحدة عن الطابع المؤقت لتلك المصاعب. كان التفكير «الاستعماري»، الذي تعرض للانتقاد كثيرًا في الوطن الأم، هولندا، في مرحلة ما بعد الحرب، بغض النظر عما إذا كان انتقادًا صائبًا أو غير صائب، لا يمت إليَّ بأي صلة من الصلات. كانت رغبتي في الرجوع إلى الهند الشرقية والعمل فيها تتأتى بالدرجة الأولى من شعوري العميق بالارتباط بالبلد الذي وُلدت وترعرعت فيه. كانت السنوات التي قضيتها في هولندا، على أهميتها، أقل بكثير من سنوات طفولتي وشبابي التي قضيتها هناك.

لو صحَّ أن لكل إنسان مشهدًا طبيعيًا خاصًا بروحه، جوًا

t.me/qurssan

معينًا، محيطًا واحدًا، تهتز له أقصى الأركان في كيانه، فإن مشهدي الطبيعي كان، ولا يزال، منظر المنحدرات الجبلية في «بريانجر»: الرائحة اللاذعة المنبعثة من شجيرات الشاي، خرير المياه المتصاعد من الجداول النقية التي تجري فوق الصخور، الظلال الزرقاء التي تلقيها الغيوم على السهول. لم أدرك أن شوقي إلى هذه الأشياء كلها يمكن أن يبلغ هذا العمق، إلا في السنوات التي استحال فيها كل شكل من أشكال التواصل والعودة. لم يستطع لقائي بـ«أوخيني» في «لاهاي»، ولا نفورها العنيف والجنوني من البلد المليء بالبشاعات والفظائع، أن يحد من لهفتي للعودة إليه. تزامن وصولي إلى باتافيا مع بداية ما أريد أن أسميه بهدف التبسيط «عمليات الشرطة». لم أعثر لـ«أوروخ» على أي أثر، ولا استطعت أن أحصل على أي معلومات عن المصير الذي آل إليه طلاب كلية الطب الهولندية-الجاوية. رحت أمشي في شوارع باتافيا التي أصبحت أكثر فوضى من السابق، لكنها بقيت مع ذلك مألوفة لي، مثلما يكون الوجه المعروف مألوفًا لدينا حتى وإن تركت المعاناة والشيخوخة آثارهما عليه، أبحث بشكل تلقائي عن «أوروخ» بين العابرين. خُيِّل إليَّ مائة مرة أنني أراه، وفي كل مرة عندما أمعن النظر في الشخص، يخيب أملي. في إحدى المرات، رأيت عبد الله بين الناس

t.me/qurssan

المحتشدين أمام وكالة الأنباء «أنيتا» في أثناء إصدارها بيانًا رسميًّا. عرفته من نظارته في الحال، على الرغم من مظهره الرث وفقدانه الكثير من وزنه.

ناديته من فوق الرؤوس التي تفصل أحدنا عن الآخر:

ـ عبد الله!

رفع رأسه وبحث بعينيه عن مصدر الصوت. هل رآني؟ تلألأت أشعة الشمس على زجاج نظارته، فلم أستطع متابعة نظراته. توقف لحظة، بين الناس المحتشدين، مديرًا وجهه إليَّ. أردت أن أذهب إليه، لكنني قبل أن أستطيع الوصول إليه، عبر بي على بعد بضعة أمتار في الاتجاه المعاكس. ناديته مرة أخرى، وأسرعت إليه وأنا أشق صفوف الواقفين حولي. كان عبد الله قد اختفى منذ زمن بعيد بين الحشود.

أوكلت لي مهمة ترميم الجسور التي دمرها «الجمهوريون» في «بريانجر». كان أول موقع أعمل فيه لا يبعد عن «كيبون دجاتي» سوى بضع ساعات بالسيارة، فلم أستطع، ما إن سنحت الفرصة، مقاومة الإغراء بمرافقة فرقة التفتيش التي ذهبت في ذلك الاتجاه بهدف الاستطلاع. وقفت في الشاحنة المفتوحة، ورحت أنظر إلى الطبيعة العزيزة على نفسي. على جانبي الطريق المليء بالحفر والتجاويف،

t.me/qurssan

لا تزال الهضاب الخضراء نفسها، وغابات الخيزران نفسها، كما أتذكرها من الماضي. المياه في حقول الأرز تتألق في الشمس، ولا تعكس الغيوم العابرة بهدوئها المعهود فحسب، وإنما أيضًا أعمدة التلغراف المائلة أو المقطوعة بأسلاكها المفكوكة المتشابكة. مجموعات من الناس، المرتدين أسمالًا بالية، يتعقبون الشاحنة العابرة بهم بوجوه خالية من أي تعبير. وحدهم الأطفال الصغار يتقافزون في أماكنهم على حافة الطريق، بينما تطغى أصواتهم الرفيعة الحادة على هدير العجلات. لم يبقَ من المحطة، التي اعتدت أنا و«أوروخ» أن نركب منها القطار إلى «سوكابومي»، سوى أطلال من حجارة متفحمة. تنمو الأعشاب الضارة والشجيرات في الأماكن التي قامت فيها أكشاك بيع المأكولات في الماضي، واختفت بيوت القرية على الجهة الأخرى من الطريق. وصلنا إلى منعطف في الطريق، فعلمت أننا أصبحنا على مشارف حقول الشاي. من هذا المكان كنا نستطيع في الماضي رؤية منزل المدير فوق منحدر الجبل، على شكل بقعة بيضاء وسط صفوف لانهائية من الشجيرات. انحنيت على حافة الشاحنة، فأخذ قلبي يخفق بشدة. كنت أعرف أنني لا يمكن أن أرى المكان القديم على حاله، نظرًا لوقوع «كيبون دجاتي» هي أيضًا على طريق الجمهوريين المنسحبين، ولكن

t.me/qurssan

مهما كانت المزرعة مقفرة وموحشة، فإن رحلتي هذه هي عودتي إلى مسقط رأسي.

الطبيعة التي ترامت أمامي عند المنعطف لم أعرفها حتى في الكوابيس. كانت سلسلة التلال المتفحمة موحشة بشكل مخيف. سارت الشاحنة في الطريق الصاعد، وكأنها تصعد بين أضلاع جيفة عملاقة. عندما تذكرت أنني نسيت النظر إلى المنزل، عرفت في اللحظة نفسها أنه قد أصبح أثرًا بعد عين، حتى إنني لم أكن لأعرف المكان الذي قام فيه في يوم من الأيام. اقترح سائق الشاحنة أن نذهب إلى تلك الأنقاض ـ كانت فرقة التفتيش قد جاءت من قبل إلى هذا المكان لمعاينة الضرر ـ لكنني رفضت اقتراحه فتابعنا السير بين التلال السوداء. فقط عندما دخلنا نفق الغابة، رأيت المكان على النحو الذي احتفظت به ذاكرتي. كانت جداول المياه جليدية البرودة نفسها تسيل على المنحدرات المكسوَّة بالسرخس، وترامت إلينا رائحة التراب والنباتات العفنة نفسها من الأعماق الظليلة بين الخضار. عرفت المكان الذي يتوارى فيه الدرب الجانبي المفضي إلى «التيلاجا هيدونج» بين الأدغال، فطلبت من الآخرين أن نتوقف. رحبوا بفكرة أخذ قسط من الراحة بعد السفر الطويل. قفزوا من العربة كي يمدُّوا أرجلهم.

t.me/qurssan

استطعت بإحدى الذرائع أن أبتعد عنهم وأتوارى بين الأشجار. مشيت بسرعة، مع أن الدرب لم يكن يُرى بوضوح تحت النباتات والشجيرات. يممت وجهي صوب رؤوس الأشجار، وصوب المكان المضيء بين أوراق الشجر في البعد، حيث أعرف أن أشعة الشمس تنساب إلى الأسفل عبر المضيق المطل على البحيرة. تزقزق الطيور، التي نسيت اسمها، في أماكن خفية بين أوراق الشجر المحيط بي. الغابة لا يزال يملأها ذلك الهسيس المستمر الغامض الذي سيميز هذا المكان إلى أبد الآبدين. وجدت البحيرة أيضًا، المتلألئة بالسواد، والنباتات المائية والتموجات الخفيفة التي يحركها الهواء على سطح المياه، على حالها من دون أي تغيير. كان حمام الغابة يطلق هديله العذب والجذاب فوق الأشجار الداكنة على الطرف الآخر. جلست القرفصاء على الضفة، ورحت أحدق في رؤوس الأشجار المتلألئة بالأخضر الذهبي في أعلى الوادي، المنيرة بضوء الشمس. لا يتناهى أي صوت من داخل المياه، سوى خشخشة سلحفاة أو سحلية تتحرك بين نباتات الشط. تطفو الجذور الهوائية في سكون على سطح المياه. هدل حمام الغابة مرة أخرى، من مكان أقرب، كما بدا لي. ذكرني بالزمن الذي كنت أنا و«أورروخ» نلعب فيه، في بيجاماتنا المخططة، عند مدخل الشرفة الخلفية

t.me/qurssan

في «كيبون دجاتي». لم يكن هديل الحمام في الأقفاص المعلقة وراء غرف الخدم يتوقف قَطُّ.

انبعث الحفيف من أعشاب الضفة في الهواء، وانساب تموج خفيف فوق المياه من جديد. خُيِّل إليَّ أنني رأيت اللمعان الأحمر الباهت تحت سطح المياه، الذي ذكرني قبل سنوات عديدة بدم داكن اللون. في الشرفة الخلفية عند عبد الله، خطر لي هذا الخاطر أيضًا. لماذا؟

امتد ظل إلى جانبي على الأرض. التفت فرأيت شخصًا من أهل البلد، في بنطال قصير خاكي متسخ، ومنديل من قماش «الباتيك» ملفوف كيفما اتفق حول شعره الأشعث. أخذ يحدق فيَّ بنظرة قاسية لكنها عمياء، وأومأ إليَّ أن أرفع يديَّ تحت تهديد مسدسه.

قلت بصوت نصف مرتفع:

ـ «أوروخ»!

طار حمام الغابة من بين الأشجار مرفرفًا بجناحيه في صخب.

لا أعرف كم طال بنا الزمن ونحن واقفان أحدنا في مواجهة الآخر، من دون أن ننبس ببنت شفة. لم أحرك ساكنًا، ولا حرك هو أي ساكن. انتظرت، من دون أي خوف، في

t.me/qurssan

طمأنينة تامة. أحسست أن هذه اللحظة هي النتيجة الحتمية التي أدت إليها كل الأحداث التي عشناها أنا و«أورورخ» منذ أن جئنا إلى هذه الدنيا. نمت ونضجت في كياننا، غصبًا عن إرادتنا، ومن دون وعي منا. هنا، على مفترق الطرق هذا، استطعنا لأول مرة في حياتنا أن يواجه أحدنا الآخر بمنتهى الصدق.

رفع سلاحه.

قلت:

ـ لستُ وحدي.

لا أظن أن الخوف هو الذي دفعني إلى هذا القول. الحق أنني لم أكترث إن كان سيطلق النار عليَّ أم لا. لم تتغير تعابير وجهه، لكن سبابته المشدودة على زناد مسدسه ارتخت. خلصت من هذا الأمر أنه وحده.

قال بالسوندية:

ـ ارحل. ارحل وإلا أطلقت الرصاص. ليس لك شيء هنا.

رأيت الشحوب قد اعتلى وجهه. كانت هناك ندبة على أحد خديه فأصبحت أكثر وضوحًا.

بدأت الكلام:

t.me/qurssan

ـ اسمع...

لكنه قاطعني بانفعال في صوته:

ـ ارحل، ليس لك شيء هنا.

كانت عيناه تلمعان بالسواد مثل سطح «تيلاجا هيدونج»، ولا تنويان مثله الكشف عما تخفيانه في الأعماق.

أدركت أنه من الجنون استدراجه إلى حديث. فما كان سينكشف النقاب عنه، كان باديًا بوضوح. ذراعه اليمنى مربوطة بقطعة قماش متسخة، لا تزال علامة «الصليب الأحمر» ظاهرة عليها. الخنجر المعلق بحزامه، والمنديل الملفوف حول رأسه على الطريقة السوندية، بنطاله القصير الخاكي من الطراز الأمريكي، ومسدسه الذي قد يكون من الأسلحة التي تركها اليابانيون وراءهم، أهناك شيء أوضح من هذا يمكن أن يعبر عن المراحل التي مرَّ بها؟

كرر مرة أخرى، على سبيل الإضافة:

ـ ارحل.

استدرت نصف استدارة ونظرت إلى «التيلاجا هيدونج»؛ حفرة موغلة في القدم، حولتها الأمطار إلى بحيرة ـ مرآة الأشجار والغيوم، ملعب الضوء والظل، هبات الريح وثعبان المياه ـ المملكة المغمورة التي تكشف عن

t.me/qurssan

وحشيتها اللاإنسانية بالتماعات الدم وسيقان النباتات المفترسة تحت سطحها الأسود.

احتجبت الشمس وراء غيمة عابرة، فتألقت البحيرة ببرود، مثل حِبر ورصاص. تصاعد الصفير الحاد من صفارة فرقة التفتيش من مكان بعيد. أدركت أنهم يبحثون عني. جالت عيناه في الغابة بسرعة البرق. لم يعد يفكر فيَّ. استنفرت كل عضلة من عضلات جسمه استعدادًا للمقاومة، استعدادًا للهرب. وقف يتشاور مع نفسه، مديرًا ظهره إليَّ نصف استدارة. تظهر الأوتار العضلية في عنقه وكتفيه النحيلتين من الشقوق الموجودة في قميصه. يثير الشفقة والرعب في الوقت نفسه؛ حيوان بري واقع في الفخ، ولكن أيضًا الذكاء الذي دمر القرى وأحرق الهضاب. مضت لحظة وأنا أراه واقفًا على هذا النحو، وخلفه الغابة الداكنة. انبعثت أصوات زملائي في فرقة التفتيش من مكان ليس ببعيد، على الدرب الممتد بين الأشجار. التفت إليه، لكنه كان قد اختفى في اتجاه لم أستطع تحديده. كانت أوراق الشجر تتحرك حركات خفيفة، حتى النسيم يستطيع أن يحركها على هذا النحو. عدت أدراجي وانضممت إلى الفرقة. هل كان «أوروخ» حقًا؟ لا أعرف ولن أعرف أبدًا، حتى إنني لم أعد قادرًا على معرفته.

t.me/qurssan

ما أردت أن أفعله هنا لم يكن أكثر من كتابة تقرير عن فترة طفولتنا وشبابنا التي قضيناها معًا. أردت أن أوثق تلك السنوات، التي مضت من دون أن تترك وراءها أي أثر، وكأنها لم تكن أكثر من دخَان في الهواء. أصبحت «كيبون دجاتي»، وبيت الطلاب، و«ليدا» في عداد الذكريات؛ أنا وعبد الله يمر أحدنا بجانب الآخر بصمت، أنا و«أوروخ» لن يجمعنا اللقاء ما حيينا. من نافلة القول أن أعترف بأنني لم أفهمه. كنت أعرفه مثلما أعرف «التيلاجا هيدونج» ـ سطح لامع، لم أستطع سبر أغواره. هل تأخر الوقت؟ هل أصبحت غريبًا في البلد الذي ولدت فيه؟ هل أصبحت غريبًا عن الأرض التي لا أريد أن أُقتلع منها؟ الزمن كفيل بالإجابة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الكاتبة

تُعَد هيلا هاسه (١٩١٨-٢٠١١) من الكاتبات المؤسسات للأدب الهولندي الحديث، ولدت في باتافيا (جاكرتا حاليًّا) وانتقلت إلى هولندا بعد دراستها الثانوية، نشرت ديوان شعر عام ١٩٤٥ بعنوان «زخم»، ثم نشرت أولى رواياتها «البحيرة السوداء» عام ١٩٤٨، التي أصبحت من الكتب الأساسية لأجيال من القراء، وتبعتها روايات «تجوُّل في الغابة المعتمة»، و«عتبة النار»، و«السيد بينتينك أو عنيد الطبع»، نالت العديد من الجوائز والتكريمات من عدة دول أوروبية وأفريقية وآسيوية، ومن ضمنها جائزة الأدب الهولندية عام ٢٠٠٤. كما أُطلق اسمها على كويكب يدور بين المريخ والمشترى.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

المترجمة

أمينة عابد من مواليد مدينة عفرين بسوريا، ١٩٧٠. درست في حلب ومدينة لايدن الهولندية، حيث بدأ اهتمامها بالأدب الهولندي. تعمل في الترجمة وتدريس اللغة العربية في أكاديمية اللغات في جامعة لايدن.

من ترجماتها عن الهولندية: «الاعتداء» للكاتب «هاري موليش» (الكرمة ٢٠١٧)، و«الإوز يأكل خبز البط» للكاتبة «أنّا روت فيرتهايم»، و«كتاب من أجلك» - مجموعة قصصية للأطفال.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

ترجمات الكرمة

١ . صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢ . سالباتييرًا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣ . أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤ . النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥ . جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦ . الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧ . صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨ . الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩ . عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠ . الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١ . طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢ . رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

t.me/qurssan

١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.

١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.

١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.

١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.

١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

«البحيرة السوداء» قصيرة، وممتازة، ويمكنها أن تكسرك، وتطاردك، وتهزك، وستفعل... إنها رائعة إلى حد تخديرك، ثم، فجأة، تصبح صادمة، وعليك أن تتخذ موقفًا» ــ «ذا سكوتسمان»

«سحر الرواية جعلها كلاسيكية فور صدورها، هذه كاتبة مهتمة بدرجات الرمادي أكثر من الأسود والأبيض» ــ «الإندبندنت»

«رواية قصيرة، حاذقة... تتطور القصة بسرعة، لكن قوتها تتعاظم ببطء. في البداية، أسلوب «هاسه» غير المزخرف قد يوهم القارئ بأنه يقرأ قصة بسيطة، وهذا ما سيزيد من افتتانه بالتعقيد الفعلي الذي تحققه الرواية في النهاية... «البحيرة السوداء» هي المدخل الأمثل لأعمال «سيدة الأدب الهولندي العظيمة»» ــ «أسيمتوت جورنال»

في الطبيعة الخلابة لجزيرة جاوة الإندونيسية، يمضي صبيَّان طفولتيهما في استكشاف البحيرات الشاسعة والغابات الكثيفة. أحدهما ابن صاحب مزرعة هولندي، والآخر ابن خادم من سكان الجزيرة الأصليين. وإن كانت الصداقة الوثيقة التي تربط بين الصبيين تجهل، في بداياتها، طبيعة بلد وشعب مستعمَر، فهي لن تكفي، وهما يكبران، لرأب الصدع بين عالميهما المختلفين والمتعارضين. وعند لقائهما بعد فراق طويل، تتحول مساحة الصداقة إلى ساحة صدام يكون تأثيره فيهما أعمق من كل ذكريات الطفولة.

«البحيرة السوداء» واحدة من أشهر الروايات الهولندية على الإطلاق. نُقدِّمها هنا للمرة الأولى بالعربية، في ترجمة جميلة ورشيقة، لأمينة عابد.

الكرمة

t.me/soramnqraa